

شفت

دانية قصاص

رواية



شفق

رواية



دانية ياسر قصاص

الإهداء:

إلى كل قلبٍ شجاع.
إلى كل شخصٍ تحدّى آلامه وتقبلها حتى تشفى.
وإلى كل من أضاء شمعةً في حياة الآخرين واثقاً بأن إنارة دروب
الناس لن تُعتمَ دربه.
إلى كل من تحلّى بالصبر اتجاه آلام من يُحبهم، وشاركهم لحظاتهم
الصعبة آخذاً بأيديهم بكل دفءٍ وحب.
إلى كل من أدرك بأن مشاعره قد تنحرف به لسبيلٍ خاطئ، فكان
شجاعاً وتحدى قلبه ليكون على الطريق الصحيح.
إلى من أدرك بأن طريق الحياة طويل ومليء بالعقبات، فلم يستسلم.

"أشد الآلام على النفس: آلام لا يكتشفها طبيب، ولا يستطيع أن يتحدث عنها مريض"

— مصطفى السباعي.

في ذلك الصباح المشمس اشتريت كأساً من القهوة سريعة التحضير على باب الجامعة، وذهبت تتمشى بين الأشجار حتى وصلت لمقعدها تحت شجرة وارفة الظلال، كانت تسميها شجرتها وتفضل الجلوس تحتها دائماً، وضعت أوراقها ومحاضراتها وكأس القهوة على المقعد، وأخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها لتأكد من أن حجابها على ما يرام، عدلته قليلاً، وهمت بالجلوس قبل سماع صوت صديقتها ليان تُلقي عليها تحية الصباح، فردتها شفق وقبلتها ثم جلستا، سألتها ليان: — كيف حالك؟ عيناك لا تُريحني؟ هل قابلت براء البارحة؟ ثم إني اتصلت بك مساءً ثلاث مرات، كنت في المنزل وحدي وأحتاج الحديث لأحد كيلا أستوحش المكان، لماذا لم تجيبي على الاتصالات يا شفق؟

تهدت مردفة ثم رشفت من قهوتها:
— لم أقابله، كانت حالتي سيئة جداً، ثم خرجت ونسيت هاتفي في المنزل.

— أقلقيني، ماذا حدث، هل أنتِ على ما يرام الآن؟ أخذتِ الدواء؟
— ليت ما أعاني منه دواءً يا ليان.

قالتها بشجنٍ عميق وأخفضت رأسها، أمسكت ليان بكفها مردفة:
— هيا تحدثي يا شفق، ما بك؟

— البارحة وأنا أنشر الملابس فقدتُ وعيي تقريباً وعثرتُ عليَّ زوجةُ عمي، أقفُ على حرفة الشرفة، وأقدم قدماً على الأخرى كمن يريد الانتحار، لولا مجيئها في اللحظة الأخيرة والتشبث بي لإنزالي لكنتُ في عداد الموتى الآن.

— كيف ذلك؟

قالت بصوت خافت مرير:

— لا أدري وما أوجعه من جوابٍ يا ليان!، هذه المرة الثانية التي يرونني بها بصدد الانتحار، والأقسى أنني حينما يخبروني بذلك لا أتذكر شيئاً البتة! فأبكي أو أصمت كمن على رأسه الطير، خرجتُ بعدها معهم لأروحُ عن نفسي في الهواء الطلق، لم أكن في حالة

جيدة لتذكر هاتفي أو لإجابة الاتصالات، دعي الأمر سراً بيننا يا ليان اتفقنا.

ضمّتها إليها بحنان وهي تعدّها بذلك.

كان جالساً في الشرفة ساهماً في أفكاره، يحتسي قهوته ويراقب المارة بلا اهتمام، على يمينه تصطف النباتات أصيص بجانب أصيص، وعلى يساره يترنم الكاريان الأصفران بصوتيهما العذب، أقبلت السيدة ابتسام للشرفة ببسمتها المعهودة، التي تُزيّن ثغرها، ورائحة البن تسبقها، حاملة الصينية بيديها، أردفت بلطف:

— صباح الخير يا مازن، أراك هنا للآن لماذا لم تذهب لعملك للآن؟
— صباح النور يا خالتي، كنتُ أنتظركما لدي ما أقترحه عليكما، أين أمي؟

— تُصلي الضحى، ستأتي حالما تنتهي، تفضل فجانك يا بني.
— شكراً، سبقتكما علي ألا أتأخر، سأحدثك وتشاوري مع أمي في الموضوع، ثم أخبراني برأيكما، أفكر يا خالتي ابتسام، ب.....

حدثها، ثم استأذن دعت له بالسلامة والرزق، كان يحب مناداتها بخالتي لطيب علاقتها بأمه كانتا كالأختان، وذلك ما أورث محبة بين أبناء العم، بعد موت عامر والد شفق رحمه الله، أصرَّ العم سعد على مجيء زوجة أخيه وابنتها للعيش معهم، فوافقت ابتسام بعد الرفض لعدة مرات، على الأقل لأجل ابنتها وللابتعاد عن الوحدة القاتلة خاصة بأنها لا تملك أهلاً ولا أقارب.

خرجتا من القاعة تضحكان وأيديهما متشابكة ببعضها، لماذا وجدت الفراغات بين أصابعنا؟ بالطبع لتتشابك مع أصابع أخرى لتمنح الشعور بالأمان، كانت ليان تعرف كيف تُغير مزاج صديقتها وتُبدد حزنها مرحاً، استوقفهما براء، ملقياً التحية، مرتدياً قيصاً رمادي اللون مع سترة وبنطال شديداً السواد، كان براء طويل القامة يقف بوقار وبيعض من الحياء، عدل من وضع نظاراته مُردفاً بعد أن ردتا التحية:

— كيف حالكما؟، لم تأتي البارحة يا آنسة شفق، أرسلتُ لك رسالة أيضاً ولم تجيبي، أردت الاطمئنان عليكِ فحسب.

— نحن بخير، شكراً لسؤالك، لكن شفق أضاعت هاتفها البارحة
وكانت قد نسيت في بيت صديقتنا، وقد استردته صباحاً.
أضافت شفق على كلام ليان:

— صحيح، وأعتذر لذلك.

— حسناً لا مشكلة، الحمد لله أن الأمور على ما يرام، آنسة شفق هل
لي برقم الوالد من فضلك؟ أرى أن أتحدث بالأمر رسمياً بنفسى
قبل أن تخبريهما.
ردت ليان:

— هل تعرف مطعم اللقمة الطيبة؟ يديره ولي أمر شفق بإمكانك
زيارته إن أردتَ التحدث إليه.
— أعرفه طبعاً، حسناً وقتاً طيباً، السلام عليكم.
"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" ردتا معاً، ثم نظرت شفق
بازعاج لليان:

— من وكلك الناطق الرسمي لي يا موجبة أنت؟ ما هذا الذي قلته له؟
لم أحسم أمري بشأن الارتباط بعد.
— أعطه فرصة ثم احسمي الأمر، رأيتك نجلى، قلت لنفسى أنقذي
الموقف يا ليان بحكمتك، إنه نداء الواجب يا رفيقة.

سخرت شفق من آخر كلمتين مقلدة إياها، وضحكًا.

في الصباح الباكر الهادئ إلا من هديل الحمامات الشجيّ، كانت تقف إيناس، تأملت السماء لهنية من الزمن، ثم تنفست بعمق ومضت لتشتري كوباً ورقياً من القهوة المُرّة كما تحبها، وركبت في سيارتها منطلقة إلى المستشفى حيث عملها، في طريقها لمحت شاباً مغمياً عليه في طرف الشارع والدماء تملأ وجهه والطريق، توفقت بسرعة نزلت مسرعة نحوه، مدت يدها تتحسس نبضه، إنه لا يزال حياً، ضميرها يؤنبها على تلكؤها بحمله للمستشفى في طريقها وتفكيرها المنطقي يمنعها حتى لا تقع في المشاكل، ألا يكفيها أن عائلتها تنتظر سبباً من الهواء حتى تثنيها وتعيدها للبقاء في المنزل أبداً، وقفت ومشّت قليلاً عساها ترى أحداً يعرفه أو يساعدها في حمله، لكن لا أحد، من سيتمشى منذ الساعة صباحاً؟! تحاملت على نفسها وحملته لسيارتها بصعوبة ثم مسحت الدماء من على وجهه، وصلت هناك وأخذته للطبيب المختص، فاختصاصها طب الأسنان.

بعد ساعة إلا ربع خرج الطبيب قائلاً:

— لن أخبرك بأن الجروح خطيرة لكن الرضوض كثيرة، وبعض الجروح مع الأسف ستبقى تشكل ندوباً دائمة إن لم تُعالج من قبل طبيب تجميل، وأعتقد أن هذا ضروري لأن ملامحه ستتشوه، إضافة إلى ذلك هناك إصابة في رأسه أيضاً إثر ضربة قوية، حدثيني يا آنسة ما سبب كل هذا، ماذا حدث مع الشاب؟

أجابته بارتباك:

— لا أعرف عنه شيئاً وجدته وأنا في طريقي إلى هنا، كان واقعاً في طرف الشارع والدماء تغطيه فأحضرتة إلى هنا، بالمناسبة أنا إيناس طبيبة أسنان أعمل هنا في الطابق الثالث.

صمتت ثم تابعت:

— ما الذي فعلته سيدي الطبيب ومتى تتوقع بأنه سيستيقظ؟
— عالجتُ جروح وجهه وكذلك إصابة رأسه، وعلقت له سيروم فيتامينات يحتاجها جسمه، وأعطيته حقنة مسكن للآلام، ربما بعد ساعة سيصحو، اقترح عليكِ مقابلة الطبيب أجد إنه بارع في عمليات التجميل الناتجة عن الإصابات وسيساعده لإعادة ملامحه الطبيعية بوقت قياسي، تفضلي هذه بطاقة عيادته وعليها رقمه أيضاً.

— حسناً، جزاك الله خيراً سأذهب على الفور.
ذهبت لسيارتها، جلست واضعة البطاقة أمامها، انتبهت فجأة للقهوة
التي لم تشربها بعد، وقالت:
— أنا فتاة لا أصلح للرواق، أصلح للوقوف بما لا تُحمد عقباه فحسب،
حسبي الله ونعم الوكيل.
أخرجت هاتفها واتصلت بالطبيب واتفقت معه على المجيء حالاً
حيث لم يأتي أحدٌ بعد لتكون هي الأولى.

"نحنُ نعلم.. لكنّا أحياناً نريد أن
نسمع ما نعلم، لنطمئن."

لقائله.

عادت بعد نصف ساعة ومعها الطبيب أمجد، دخلت قسم
الإصابات حتى وجدت ذلك الطبيب، رحب كلا الطبيين بالآخر
حيث يبدو أن بينهما علاقة قديمة لتقاطع نقاط عملهما معاً، ثم
أخبرهم الطبيب أن الشاب قد استيقظ قبل قليل وبإمكانهما
رؤيته، طلب أمجد من إيناس الدخول للحديث معه والاطمئنان
عليه حتى يستعلم عن حالته من الطبيب، فوافقت وكيف لا توافق
وهي التي حين تتورط بأمر فإنها لا تنسحب أو تقلل درجة التورط
بل تنغمس بكلها حتى النهاية.
— الحمد لله على سلامتك.

نظر إليها الشاب بعيونٍ واهنةٍ مجيب:
— سلمك الله، أنتِ من أسعفتني؟

— نعم، هل أنت بخير؟ أتحفظ أرقام أحد أقاربك لأتصل به، بالطبع أنهم قلقون عليك؟

— لا، هل بحوزتك مرآة؟ قال الطبيب: هناك تشوه يحتاج تجميلاً، ما الذي حدث لي؟

— لا تقلق، الأمر بسيط، سيكون كل شيء على مايرام، لا حاجة للمرأة انظر إليك في داخلك أنت هو أنت لم يتغير شيء!، اطمئن.
— بل إن التشوه كان داخلياً أكثر مما هو خارجياً أيتها الأنسة.
— أرجوك أن ترتاح، لا زلتَ متعباً، ثم إن كل الأمور ستكون أفضل مما كانت عليه، سأستدعي الطبيب أجد لرؤيتك.

في الساعة السادسة مساءً، كانت السيدة ابتسام والسيدة ميساء في المطبخ تعدا الطعام، بينما شفق تقطع الخضار للسلطة وتُدرس ابنة عمها الصغيرة، شفق تقرأ وأمل تردد وراءها، خرجت بدور ابنة عمها ذات السبعة عشرة عاماً تفرقع بأصابعها قائلة:
— تعبت كثيراً، هل أساعد بشيء؟ أنا جائعة كمن لم يأكل منذ عشرة أعوام.

— قريباً يجهز الطعام عزيزتي، جهزي الطاولة، واتصلي بمازن ليُحضّر الخبز معه.

— حاضر يا أمي.

بعد ساعتين، أكمل الجميع طعامه، واجتمعوا يحتسون الشاي بالنعناع، قال مازن:

— أمل حلوتي هيا العبي قليلاً في غرفة النوم ثم اخدي للنوم.
نظرت لأمها فأومأت لها بالإيجاب، أطاعت على مضض وأخذت دهبها الوردي متجهة للغرفة، فتابع:

— لدي موضوعاً علينا النقاش به.

قاطعته العم سعد وهو والد مازن:

— وأنا أيضاً لدي ما يهم، ابدأ يا بني.

— لا يا أبتى سأحدث بعدك، هيا كلنا آذان صاغية.

توجهت الأبصار نحو العم سعد، وضعت بدور كتابها جانباً وعدلت جلستها، لترى ما هذه المواضيع المهمة، وماذا فاتها وهي غارقة بين أكوام الكتب، لكن شفق كانت متوترة لأنها تتوقع الموضوع الذي سيبدأ الآن، شبكت أصابعها وتنفست بعمق، أردف العم سعد

بعد رشفة الشاي:

— هناك خاطبٌ يريد أن يتقدم لبدور، وقد طلب مني موعداً وكلمني اليوم، حاولت إخباره بأنها صغيرة وغير مستعدة، وعليها إكمال دراستها، ولكنه كان مُصرّاً، فقلت لنفسي لن أكسر بخاطره، لنعطه موعد ونتعرف عليه أكثر.

حملت بدور بوالداها بخجل غير مصدقة، بينما شفق النجلى كانت مصدومة تماماً، نظر مازن إليهما وقال ممزحاً:

— تغيرت ألوانكما، ما بكما وكأنه خبر وفاة، أنتما مضحكان، أبي ألم يخبرك باسمه، أو من أين عرفنا على الأقل.

— أظن أن اسمه ضياء أو براء شيئاً كهذا، كان المطعم مزدحماً لم أسمعته جيداً، على كل حال سنتعرف عليه عند مجيئه ما رأيك يا أم مازن؟

ردت ميساء:

— لا مشكلة، إن كان شاباً ملتزماً خلوقاً، سنعطيه الموافقة ولكن سنأخر الخطوبة حتى تنتهي هذه السنة الدراسية، فهي مهمة وحاسمة، ثم إن الأمر يعود لبدور يا عزيزي، ما رأيك يا بنتي؟

ردت بدور ببلاهة:

— بماذا يا أمي؟

نكزتها شفق ممازحة:

— بالشاي، هل أعجبك؟

قاطعها مازن ضاحكاً:

— ليست وقت المزاح يا نجولات، أختي غاليتي أ مستعدة للأمر ما رأيك؟.

أرجعت خصلاتها للوراء ببطء، مردفة بجديّة:

— دراستي أهم ما لدي حالياً، ولكن لنرى الأمر كما قالت أمي، إما أن تنتقلوا للموضوع الآخر أو أنني سأذهب لمتابعة دراستي.
ردت السيدة ميساء:

— حسناً أعطه موعداً غداً على الساعة مساءً يا أبا مازن.

أوماً لها يردد بعض أدعية التوكل وتيسير ما فيه خير.

ابتلع مازن ريقه، واقترب للأمام يقول وهو يوجه نظراته اتجاه شفق:

— عزيزتي شفق أريد منك أن تتفهمينا ولا تنفعلي لأن الموضوع
يخصك اتفقنا.

لم تفهم قصده لكنها وافقت بقلق وترقب، فأكل:
— مؤخراً أصبحنا جميعاً نخاف عليك يا شفق، صحتك تهمنا كثيراً،
هناك طبيبة جيدة جيداً وقريبة من مكان عملي، عمك قد وافق
وكذلك والدتك على اصطحابك معي، لكنني لم آخذ موعداً مع
الطبيبة قبل أن آخذ موافقتك.
بأنزعاج بارد:

— لكنني لست مريضة يا مازن!
قال العم بصوت حنون:
— إنها طبيبة نفسية يا بنيتي، ستساعدك لفهم تلك الحالات الغريبة
التي تراودك، نخشى أن تودي بحياتك يوماً ما ولا نكون بجانبك،
نريدك أن تتعافي من ذلك لأننا نحبك يا بنيتي.
— ولكن يا عمي...
قاطعها:

— لا تخافي يا بنيتي سيكون كل شيء على ما يرام، تشجعي ولتكن
ثقتك بالله كبيرة، لنذهب المرة الأولى، ثم قرري إن أردتِ
الإكمال عندها أو لا.

— حسنا يا عمي، ونعم بالله كلها يا مازن.

كان الطبيب أحمَد يحضّر نفسه لإجراء العملية، ثم تذكر بأن عليه أن
يرى شكل المريض قبل الإصابة، وعندما سأل الشاب إن كان
يملك صورةً له، أجاب بالنفي وبأن هاتفه ضائع، احتار الطبيب في
أمره فاتصل بالطبيبة إيناس وطلب منها صورة له بأي طريقة، فإن
ذلك سيساعد لعودة ملامحه الطبيعية كما كانت، فوعده بذلك
وأغلقت الخط تندب حظها فهي حتى لا تعرف ما اسمه!، ظهرت
أمامها صورة لذلك المشهور بالصدفة وهي تطالع هاتفها، فأردفت:
"وجدتها!، إنه يشبهه تماماً، سيكون ذلك رائعاً"، حفظت الصورة
بسرعة وأرسلتها مباشرةً للطبيب مبتسمةً بمكر.

"ما أثقل الغيرة حينما تلتف حول قلبك ولا تملك الحق بالتعبير عنها؛ فتعبر عنها نظراتك، زفرائك، وعصبيتك الغير مبررة"

دانية قصاص

في الساعة الخامسة كان الهدوء يخيم على المنزل، مازن والعم سعد في غرفة الجلوس بانتظار الضيف، وأم مازن تدرس الصغيرة في الغرفة المجاورة، والفتيات في المطبخ يجهزن الكعك والشاي، طرقات متزنة على الباب جعلت شفق ترتجف وتوقن بأن براء وصل، يا لسوء الفهم، يا ترى ماذا سيحدث؟ فتح مازن الباب واستقبله ببشاشة، ثم أتى للمطبخ يأخذ الشاي، فوجد الفتاتان إحداهما بوجه أصفر والثانية بوجه أحمر نجلاً، تناول الصينية مبتسماً وذهب للغرفة، بعد مدة وجيزة قال العم سعد:

—تشرفنا بك يا بني، ماذا تعمل أو تدرس، ومن أين تعرف ابنتنا؟
—أدرس في كلية الحقوق، وأعمل مدرساً للأطفال، أعلمهم القراءة
والكتابة وحفظ القرآن الكريم، أما بالنسبة لابنتكم فأنا لا أعرفها
تماماً لكنني لمحتها عدة مرات في الجامعة، ولفتني أدبها وأخلاقها،
فقررت أن أتقدم لها لأتعرف عليها أكثر، وعسى أن يتم النصيب
بالخير.

بدت المفاجأة على الحاضرين، أردف مازن ببلاهة ليكذب ما فهمه:
—لكن بدور ليست في الجامعة يا أستاذ براء!
—أظن أن اسمها شفق من جئت طالباً يدها، وبالفعل هي في
الجامعة.

استدرك العم سعد الأمر وتنحنح قائلاً:
—أها، تقصد ابنة أخي، عذراً كان هناك سوء فهم، شفق كابنتي
وأعز إن شاء الله، لكنك عندما قلت ابنتي ظننت غير ذلك.
—لا مشكلة عماه.....

وتم اللقاء والتعارف بين العم سعد وبراء بين سؤال وجواب،
ومازن يراقب بصمت والدماء تفور في عروقه، ثم وعد العم براء

بالتحدث مع شفق والسؤال عنه أكثر، وسيعطيه جوابه ليحضر أهله إن وافقت لتمام الخطبة، انتهى اللقاء قرابة السادسة والرابع، كان موعد شفق مع الطيبة عند السابعة.

دخلت السيدة ميساء المطبخ ضاحكة مردفة:
_ هيا حضرن الغداء يا بنات، يا خيبتك يا بدور يا بنتي.
_ هم وانزاح عن صدري يا أمي، مبارك عليك يا شفق.
قالتها بدور وضحكت، أطل مازن مردفاً يبرود، يتحاشى النظر في الأعين، خوف أن يقرأ أحد ما في عينيه:
_ عندي مشوار ضروري، سأعود عند السابعة كوني جاهزة يا شفق، لا أريد تأخير اتفقنا؟.
شعرت شفق بضيق مازن لكنها ردت ببرود مماثل:
_ حاضر، وإن كنت مشغولاً فلا داعي للذهاب اليوم.
_ بل هناك داع، ولو اضطررت لإكمال عملي معك عند الطيبة، إلى اللقاء.

وخرج، أردفت ميساء:

— إنه سيء الطباع عندما يكون منضغطاً من العمل، لا تأخذه يا حبيبتى.

قالت شفق مناجيةً نفسها: "إنه سيء الطباع عندما يشعر أن زمام أموري ليست في يديه، ولد متسلط، غيور".

تطلعت للمرأة التي في زاوية مكتب الانتظار، عدّلت من حجابها وثبتته، وراحت تفكر في أمر المازن الغريب، إنه لم يتفوه بكلمة طوال الطريق!، نادتها الممرضة بأنه قد حان دورها للدخول، تنفست بعمق ودلفت للداخل بتوجّس، ألقت التحية:

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أهلاً شفق.

— وعليكم السلام.

قالتها بصوت خافت متوتر، ثم جلست قبالتها بهدوء تطالع الجدران الزرقاء بلون السماء، والغيوم البيضاء المرتسمة عليها، شعرت براحةٍ تخالجها فجأة فابتسمت وعادت بنظرها للطبيبة التي بادلتها بدورها الابتسام مردفة:

— أنا سماح وأنتِ؟ عرفيني عنكِ بالتفصيل.

—تعرفين اسمي على ما يبدو، أنا شفق، طالبة أدب عربي، عشرون خريفاً بانتظار ذلك الربيع البعيد، أعيش مع بيت عمي أنا وأمي، وحدث ذلك بعد وفاة والدي، هذا كل شيء.

—لا أريد كل شيء كما يبدو للآخرين، أنا أريد الحقيقة يا شفق.

—وما الحقيقة؟ أتظنين بأنني أكذب فيما قلت؟!

—لست كاذبة، لكنك سطحية، الحقيقة هي ما نخفيه في صدورنا، ما نتذكره وحدنا فنشعر إما بسعادة تجعل أرواحنا خفيفة، أو بغصة تثقل كاهلنا وتدمع أعيننا، أريد معرفة ما يؤرقك.

إن ما نتجاهله ونواريه عن أنظار الآخرين هو حقيقتنا يا شفق، تكلمي براحتك هيا.

—ما يبكي لا يحكي، فاشلة أنا في فن الكلام، لا أعرف كيف أفضفض.

—إن الكبت أكثر ما يؤثر في نفوسنا وصحتنا، ماذا تفعلين عند الغضب أو الحزن؟

—أكتب...

—إذاً، اعتبريني أوراقاً وحدثيني وكأنك تكتبين، شفق من أنت؟

— أنا شفق، وقد ارتبطتُ بالتاء المربوطة منذ زمن بعيد، بحيث أنني لست ذلك الجمال الساحر في الأفق، عالٍ حد السحاب، وإنما تلك النظرة الحزينة التي تطل من العيون دائماً ما تؤكد لي بأنني شفقة، وحده والدي كان يراني بشكل مختلف، رحمه الله.

— وكيف كان يراكِ؟.

— شؤماً بسبب بعض الأمور التي حدثت بعد ولادتي، تعامل معي على ذلك الأساس بأنني شؤم، ما جعل الجميع يشفق عليّ ويربط تلك التاء بذاك الجمال فيذبل ويشفق على نفسه قبل أن يشفق الجميع عليه، بات الجميع يحاول التحكم بي بحجة أن عليهم حمايتي.

— ما موقف والدتك، ألم تستطع أن تغير شيئاً من ذلك، أو على الأقل أن تزرع فيكِ أملاً وأفكاراً جميلة بدل تلك في طفولتك؟

— لم تفعل شيئاً، كان حزنها وهمها يكفيها ويشنيها عن أي تدخل، خوفاً من النتائج غير المحمودة، كانت تحبني كثيراً، ولكنها حملتني فوق طاقتي، علقت عليّ آمالاً كبيرة دون أن تعلمني كيف أحققها، ودون أن تدعمني، لم يكن بإمكانني تحقيق أي شيء بتلك الحالة رغم كل محاولاتي، كنت حينها أحتاج أن أعطى لأعطي، لكنني كنت مجبرة على إرضاء الجميع، وعندما فشلت رأيت نظرة الخيبة في

عينها، واستوطنني الشعور بالعجز، أنا لست ذات أهمية يا طيبة لا
تتعي نفسك معي.
قالت كلماتها بكل مرارة، وابتعلت ريقها مانعة دموعها من
الانهمار.

أردفت سماح:

— شفق اسمعيني، ليس بإمكان أي أحد أن يشعرك بأهميتك مالم
تشعري أنتِ بذلك من تلقاء نفسك، سأخبرك بأنك مهمة وجميلة
كالشفق الأحمر النجول في أعالي السماء، ولكن لن تؤثر كلماتي بك،
أنا سأساعدك لتقوية ذاتك ولحبها، أول خطوة لبدأ صفحة جديدة
هي أن ندرك ما في الصفحة القديمة، وكيف يجب التعامل معه،
والتعلم مما فيه، ثم نحتاج القوة لنطويها دون عودة، ونبدأ بأخرى
أفضل منها.

— هل أستطيع؟!

بمنتهى العجز سألت، فأجابت الطيبة سماح:

— نعم تستطيعين إن شاء الله، والآن نكتفي لهذا اليوم، أريد منك
وعداً بأنك ستأتين ثانية إلى هنا يا شفق.

— وعد.

بعد أن خرجت شفق كان مازن بانتظارها واصطحبها للسيارة، لاحظ بريق الدموع الذي يستوطن عيناها، ويخاف مغادرتها متمسكاً بأجفانها بكل ما أوتي من قوة، رق قلبه لها، سألها بصوت حنون:

— كيف كانت الجلسة؟

— جيدة، لا تشغل بالك بي.

— أردت الاطمئنان عليك، لدي سؤالين اذا سمحت.

سألها وبدأ بالقيادة، أومأت له ليتفضل، وفتحت نافذة السيارة.

— من براء؟

رفعت حاجبها قائلة بعصبية:

— براء هو براء، أحتاج جواباً فلسفياً أيضاً كالطبيبة؟

— أقصد، هل تعرفينه قبل الآن؟

— أخبرتك مراراً ألا تشغل بالك بي!، مازن دعني أكون حرة، لماذا تحب معرفة كل الأمور؟ نعم أعرفه ولكن فقط عن بعد، كاسمه وشكله فحسب.

— إذاً حينما تحدث أبي بالموضوع كنتِ تعلمين أنك المقصودة، وأن هناك سوء فهم، ولم نتحدثي بذلك؟.

— كفى، أنا متعبة، قف ودعني أكل مشياً.

انتبه لصوتها الواهن المنزعج، تخفف السرعة واستدار إليها مردفاً:

— آسف، كنت أطمئن عليك فحسب.

— لا أريد أن يطمئن علي أحد، دعوني وشأني، من أوكلكم الوصاية

علي جميعاً؟ الآن أبي متوفي أصبح على الجميع أن يتقمص دوره!.

— أهدأي لم أكن أقصد يا شفق.

كان يريد الاطمئنان على قلبه لا عليها فحسب، كانت غيرته دافعه

الأول والأخير لتلك الأسئلة، وليس لأجل التحكم بها كما تظن هي.

"لا زلت أتمنى حدوث تلك الأمنية، رغبة واحدة وشعور واحد
فقط وددت لو أنني أعيشه، أتخيل حجم الدهشة الحقيقية التي
ستداهمني عندما تتحقق!"

— لقاءه —

كانت تجوب أروقة المستشفى ذهاباً وإياباً بمريولها الأبيض وكذلك
حجابها، تحمل قهوتها في يد، وهاتفها في اليد الأخرى وتعيد الاتصال
مرة تلو المرة، إلى أن جاءها الرد أخيراً.

— صباح الخير، صباح الإزعاج، يا ظلمة تسعة اتصالات من السابعة
صباحاً، ماذا أفعل بك؟
ضحكت إيناس مجيبة:

— صباح النور والسرور، الأمر يستحق أكثر من هذا بكثير، نحني
من عندنا في المستشفى؟

— من؟

— قلتُ نحني يا كسولة.

— لا يهم، أريد النوم أرجوك.

— لن تنامي بعد الآن، الرسام المشهور أحمد الخطّاب هنا، إن لم تأتي الآن لن ترينه أبداً، ألا تحلمين برؤيته منذ زمن، إنها فرصة ذهبية يا داليا.

— إيناس هذا واقع أم أنني لا أزال نائمة؟! تردين إيقاظي لذلك تكذّبين، دعيني أنام.

— غبية.

هتفت بها بعصبية وأغلقت الخط، رشفت من قهوتها مبتسمة بمكر، تعلم مدى إعجاب ابنة خالتها بذلك المشهور وحلمها بلقائه، والتحدث إليه، هي واثقة بأنها ستكون هنا بعد دقائق فحسب، لكنها لم تحسب حساب انكشاف خدعتها، ماذا لو اكتشفت داليا بأنه ليس هو وإنما شخص غريب مصاب، خضع لعملية تجميل وكانت الصورة الوحيدة التي بحوزتها صورة أحمد المشهور الذي يشبه هذا الشاب، فقدمتها للطبيب ليعيد بعض ملامحه التي أفسدها الحادث الذي لا

يزال مجهولاً أيضاً؟، هكذا هي دائماً تندفع غير آبهة بالنتائج وكذلك
ابنة خالتها داليا بالضبط!.

بعد قليل كانت داليا عندها تشتعل حماساً لترى إن كان الأمر حقاً
أم خدعة من إيناس، صرخت:
— أين هو؟، أود رؤيته.

— يا مجنونة اهدئي، هنا مستشفى ليس شارعاً، تعالي لكنه لا يزال
نائماً، حافظي على هدوءك رجاءً.

ثم اصطحبتا لغرفة علي، دخلتا الغرفة معاً، كان يغط في نومه، يعلوه
غطاءً أبيض ككل شيء في هذه الغرفة، نظرت داليا إلى الساعة
الجدارية، واقتربت منه بخطى حثيثة، رفعت حاجبها بدهشة قائلة:
— حقاً هو! ما به؟ أود التحدث إليه يا إيناس.

— انتظري هنا، سأُكلم الطبيب وأعود، لا تقلقي هو على ما يُرام.
— حسناً وأنا سأُجلب بعض الأزهار لحين عودتك.

خرجتا من الغرفة بهدوء، ذهبت إيناس إلى الطبيب، بينما اتجهت
داليا لحديقة المستشفى الصغيرة، تجمع منها بعض الأزهار، ثم عادت
وضعت الزهور في كأس الماء على الطاولة الصغيرة، وأزاحت

الستائر عن النافذة قليلاً لتدلف أشعة الشمس ببعض دفئها، سألها
أحدهم فجأة:

— أنتِ أحد أقاربه يا آنسة؟

ألتفتت بارتباك فوجدت طبيباً فاره الطول، كستنائي الشعر
والعينين، يرتدي مريوله الأبيض ويأدرها بابتسامة خفيفة، فبادلته
إياها مردفة:

— تقريباً، طمأني عنه أيها الطبيب.

— إنه بخير الآن، هل تعرفين سبب الإصابة التي أدت لتشوّهه؟

ارتسمت الصدمة على محياها ونظرت إليه ببلاهة، فقال:

— يبدو أنك لا تعرفين بالحادث!، تأمليه قليلاً هل هو الآن يشبه ما
كان عليه؟ لم أجد معه بطاقة الهوية الشخصية ولا حتى هاتفاً
محمولاً، لكنه أخبرني أن اسمه علي، ولا يريد أن يقلق أهله، حاولي
إخبار عائلته بطريقة مناسبة لو سمحت.

استمعت إليه بتركيز شديد بينما لم تفهم شيئاً من كلامه، أردفت
بابتسامة مصطنعة:

— الحمد لله على سلامته، شكراً لك استأذن الآن علي الذهاب.

— على الرحب، رافقتك السلامة.

راحت تمشي مصدومة برواق المستشفى تبحث عن عيادة إيناس،
لكن إيناس ظهرت فجأة في طريقها وصاحت:
— كنت ابحت عنك، أين كنت؟
كانت داليا تحت تأثير الصدمة، سألتها ببطء:
— إيناس من هذا؟
— من هو؟ لا أحد هنا، ثم ما بكِ كالذي سُكبت فوقه مياه باردة،
وتحدثين كالرجل الآلي؟!
صاحت داليا:
— لا تتغابي لطفاً، أكنتِ تخدعيني؟ ظهرتُ كالحمقاء أمام الطبيب،
جئتُ بي إلى هنا قبل صياح الديك لماذا؟ أجيبي.
— أهديني هناك مرضى نائمون، تعالي لنحدث في عيادتي.
— تعلمين أن لقاءه هو أمنيّتي المنتظرة منذ سنين، ثم تسخرين مني! أنا
حساسة بهذا الشأن، أخبريني من هذا وما حقيقته؟
— سأحدثك ولكن ليس هنا، هيا بنا.
أمسكت يدها وجرتها معها، استوقفهما صوت الطبيب ينادي
إيناس، فاستدارت، فبادرها:

—لقد استيقظ علي الآن، هل تودين رؤيته؟ لطفاً حاولي إخباره عن
تكلفة العملية ليرى كيف سيُسددُها.

صمت قليلاً ثم تابع وهو ينظر لداليا بطرف عينه:
—اعتقد أن الآنسة من أحد معارفه لكنها لم تتجاوب معي كما يجب،
لدي الكثير من الاستفسارات، على كل حال تفضلاً.

—وداعاً يا أمي، هل تحتاجين شيئاً ما أحضره أثناء عودتي؟
قالتها شفق قبل مغادرتها المنزل، فردت أمها بالدعاء لها، واستوقفها
مازن قائلاً:

—انتظري قد انتهيت سأوصلك في طريقي للعمل.
وأقبل مستعجلاً بعد أن وضع حمالة المفاتيح في جيبه ورشف آخر
ما تبقى من قهوته، نادته والدته قائلة:

—مازن عزيزي لا تنسَ إحضار الحلوى عند عودتك، ستأتي والدّة
براء اليوم لزيارتنا.
أجاب بتأفف:

— أليس من المفترض أن يحضروها هم يا أمي؟! —
— أعرفك مُوجَّبٌ يا ولد ما هذا الكلام؟ صحيح بدور سينتي دوامها
عند الثالثة، مُرَّ عليها من فضلك.
— تأمرين أماء، هيا شفق تفضلي أمامي.
فتح لها باب السيارة الخلفي، وصعد من الأمام وشرع في القيادة
قائلاً:

— صباح الخير، متى جلستنا مع الطيبة؟
انتهت من فتح النافذة وأخذت نفساً عميقاً ثم أجابت:
— صباح الخيرات مازن، غداً صباحاً إن شاء الله، والحمد لله لا
يوجد وقتها محاضرات، وأنت حدثني بأخبارك.
— حقاً تودين معرفة ذلك؟
— بالطبع، منذ زمن لم تحدثني بأي شيء كما كنا صغاراً، أليس لديك
طُرْفَةٌ مُضحكة؟
— حسناً، الأمور جيدة جداً، لا تشغلي بالك بي، صمت ثم تابع
بأسلوبها:
— لستُ مُهرجاً، ألا أنني حكيت لك طرفتان أو ثلاث استوطيتي
حيطي!.

ضحكت الأخيرة وأدركت أنه يقلدها أردفت بابتسامة:

— ظريفٌ في كل شيء، إلا في تقليدي.

ابتسم لها، شعر بنخزة في قلبه، سألها:

— هل ستوافقين؟

— سأوافق على شراءك الشكولاتة لي، لا مشكلة.

— دعي المزاح جانباً، ولا تسيئين فهمي.

— ماذا تقصد؟

أوقف السيارة والتفت إليها مردفاً:

— شفق تفهمين ما أعنيه، وصلنا الجامعة، وكنتُ أود معرفة ما

توصلتما إليه أنتِ ووالدي البارحة.

— مزاجي رائق هذا الصباح، رغم أنني لا أحب هذه الأسئلة ولكن

سأجيبك، أنا بصراحة لم أقرر، أخبرته أنني سأفكر وأتعرف عليه

بشكل أوضح أولاً، ما رأيك أنت يا مازن؟.

كاد ينفجر لكنه حلیم، يسرّ الكثير في نفسه ولا يبدي به، تسأله

عن رأيه الآن، وفي ماذا؟ في خطوبتها!، وهو الذي لو أستطاع محو

ذلك الذي يدعى براء لفعل، يطلب الرحمة من الله لقلبه، يبتسم

مجيباً:

— لا داعي لمعرفة رأيي، هذا أمر يخصك، استخيري وسيُسر الله لك الخير.

ثم استدار منصرفاً، ودلفت هي لجامعتها.

شدت على زند إيناس بقوة قائلة:

— أريد فهم الأمور أولاً، دعينا لا نراه الآن.

— ماذا؟ لقد وصلنا لغرفته لا تراجع، إن كنتِ تُصرين على ذلك سأدخل أنا واذهي لانتظاري في عيادتي، لن أتأخر.

قالتها ودلفت للداخل دون استماعٍ لرد داليا، زفرت الأخرى بقوة ومضت لعيادة إيناس، ثم توقفت فجأة في منتصف الطريق، وهي تقول في نفسها: "طالما يشبهه فما المشكلة، سأعود وأراه مرة أخرى، وسأحاول فهم ما يجري".

سألته إيناس:

— كيف حالك؟ أفضل؟ هل لديك طريقة نخبر بها عائلتك يا أستاذ علي؟

رد بصوت واهن:

— بخير، لا أريد إخبار أحد، لا تسألوني عن عائتي لطفاً، متى
أستطيع مغادرة المستشفى؟

— لا زلت بحاجة للراحة، يومين أو ثلاث على ما أظن ويمكنك
ذلك، آسفة لهذا السؤال ولكن كيف ستسدد مبلغ العملية إن لم
تخبرهم.

— سأحضر المبلغ بنفسني حال سماحهم لي بالخروج، وسأتعهد
بعودتي.

— حسناً، هل رأيت نفسك في المرأة؟

طرقات على الباب جعلتهما ينظران إليه معاً، ويأذنا بالدخول،
بعباءة سوداء طويلة، وشالٍ أزرق فاتح اللون يحيط بوجهها، خبط
بضع خطوات للداخل مرتبكة، ورفعت عينيها الواسعتين اللتين
سرقتا من دجى الليل لونهما، نظرت لإيناس قائلة:

— أخبروني أنك هنا حضرة الطيبة، أحتاجك لأمر هام.

ثم نظرت لعللي الذي يطالعها باستغراب بعينه الزرقاوان لطريقة
دخولها الغريبة، فزاد ذلك من ارتباكها، ضحكت إيناس في سرها
وحاولت كتمان ذلك مردفة:

— تأخرتُ عليكِ لا تأخذيني، استأذن أستاذ علي، اعلم أنني قريبة من هنا، عيادتي في نفس المستشفى ولكن في الطابق الأخير، إن احتجت شيئاً أخبرهم فقط أنك تريد الطيبة إيناس وسأتي لمساعدتك متى ما أردت.

— ممتن لكِ، أود شرب كأس من الحليب لكني لا أرى ممرضة هنا.
— حسناً، سأخبرهم بذلك، وسأطلب لكِ مرآة أيضاً، إلى اللقاء.
قالت داليا قبل خروجها:

— أعذر لما سببته من إزعاج، عافاك الله.

وما إن خرجتا حتى ضربتها إيناس على كفتها وراحت تضحك ساخرة منها، وأخذتها لتشرح لها الأمر، عند وصولهما أطلت ليان من داخل العيادة قائلة بضجر:

— الألم يفتك بي، أنسيتِ موعدنا عند التاسعة أيتها الطيبة؟ منذ نصف ساعة وأنا هنا انتظر.

وضعت إيناس يدها على رأسها بحركة درامية محترفة، وكأنها نسيت الأمر بالفعل، وتأسفت لما حدث، ثم أخذتها للداخل، قائلة لداليا:
— اذهبي واشتري لنا شيئاً نأكله، وبعض الحليب اعطه للممرضة لتوصله لعلي، وسأكون قد انتهيت.

قالت داليا في نفسها: "تباً للاستغلال! وكأنني متفرغة بلا دوام ولا تدريب عملي".

"يا ليلُ هَبني مِنْ سُكونِكَ ساعةً
فلقدْ مَلَلْتُ ضَجيجِ قَلْبٍ مُثْقَلٍ"

— لقاءه —

ها قد أسدل الليل عباءته السوداء الحالكة، لا شيء ينير السماء سوى حفنة من النجوم المتفرقات، وبعض الدعوات الصادقات، كانت شفق تتأمل السماء من نافذتها وتسبح في أرجاءها الرحبة بينما هي في مكانها، يغشاها الشعور بالطمأنينة والسكينة، أما بدور كانت تدرس بجد وتذرف دموعاً حارة، وتدعو الله بأن يُهون عليها، وأن يُوفقها للمعدل الذي تتمناه، وتطلب منه العون والقوة، فما عادت تحتمل هذه الضغوط، بينما الأخير الذي لا يزال ساهراً، كان واجماً حزيناً يناجي الليل الذي يزيد من وطأة شعوره ألاماً، قائلاً: "أيا

ليل مكانك الأفق البعيد، فلماذا سكنت قلبي؟! لك في السماء نجومًا
تؤنس وحشتك، ومالك في قلبي قبسٌ من نور فلماذا اخترته؟،
غادره أرجوك، أتوق للصباح ولدفع شمس، أود من النور أن
يغمرنى، يا رب أنر بصري وبصيرتي، وقلبي ووجهتي، وأبعد ظلام
التفكير عني".

هكذا هو الليل دائماً، يستكين به البعض ويطمئن، ويتألم به البعض
ويئن، دفاتر الذكريات تُفتح، وجيوش الحنين تُقبل، بقدر ما هو
هادئ مليء بالضجيج، حيث تصمت الأصوات الخارجية، لتسمع
الأصوات الداخلية وتبدأ بالثرثرة.

داليا في مكان آخر كانت نائمة تحلم بواقعها الوردي الذي يسكن
خيالها على الدوام، بينما إيناس كانت تبحث عن شيء لتأكله ليتما
تنتهي الإعلانات وتعود لإكمال البرنامج الذي تتابعه، غير آبهة لا
بليل ولا بنهار، أما علي كان يتقلب في سرير المستشفى ويسبح الله
كثيراً ليزيح عنه الضيق الذي يسكن فؤاده.

صعدت الشمس مدارج السماء معلنةً صباحاً جديداً، وأخذت
تنشر أشعتها الذهبية في كل مكان، انطلقت شفق مع مازن لعيادة
الطبيبة، ولم يتبادلا أي كلمة حتى سألها مازن:

— ما كل هذا الشرود؟ أنتِ بخير؟

— ربما بخير، رغم جمال هذا الصباح، لكن خاطري مكدر بلا
سبب، وأنت ما بك؟

— بخير على ما يرام، خرجنا مبكراً أتأكلين شيئاً؟

— لا شهية لي، لكنني سأقبل بلوح شوكولا مساءً.

— لا أدري ماذا تفعلين بكل هذه الشوكولا!

— ماذا تفعل عندما تحزن يا مازن؟

— الأسطورة لا تحزن يا حورية في بحر الأحزان.

— لولا أنك تقود السيارة لرميتك بالكتاب، جاوبني لأخبرك أين
تذهب تلك الشوكولا.

— أحياناً أتمشى، أركض، أقود على غير وجهة، ألزم التسبيح، ثم
أعود في آخر اليوم للمنزل حينما أرتاح قليلاً.

— أرايت لديك نشاطات تهوّن عليك ثقل الشعور، تُخرجك قليلاً من
التفكير فيما يُحزنك، أما نحن الفتيات فلا يُسمح لنا بالخروج وحدنا

للمشي ولا للركض، ممنوع حتى أن يظهر الحزن على ملامحنا، فنعزل قليلاً ونغرق في نوبة بكاء نخرج فيها ما يُثقل كاهلنا، فيجف حلقنا وتفرغ معدتنا، فنمسح دموعنا بعد أن نستريح قليلاً، ونأخذ دواء للصداع الذي يجيء بعد حفلة البكاء، نصلي ركعتين ثم نتلذذ بلوح شوكولا ونفتح صفحة جديدة، ونخرج للعالم بقوة من جديد.

— كل هذا؟!، ما دامت بهذه الأهمية بالنسبة لك، فسأجلبها على الدوام، بالمناسبة يا شفق أنا لم أركِ تبكين من قبل!.

— لكل منا طريقته في البكاء يا مازن، ها قد وصلنا أشكرك.

— واجبي، متى تنتهي لأوصلكِ للجامعة؟

— لا عليك ليان قرية من هنا، لديها موعد عند طبيب الأسنان سأكلهما وترافق معاً هناك.

ودعته ودخلت البناء، وصلت للعيادة، راحت تتمشى قليلاً في غرفة الانتظار، نظرت لنفسها في مرآة الحائط، شردت برهة تأملت عيناها اللتان تشبهان حبات البن في لونها، استحضرت صوت السيدة عبير- والدة براء- عندما قالت: "أليس لديك فتاة بعيون ملونة؟"، "بدور أجمل، ماذا لو عدلنا عن خطبة شفق وأخذنا بدور؟"، "تبدين هادئة أكثر مما يجب!".

— صباح الخير، أراك مبكرة، يا أهلاً وسهلاً.
قطعت الطيبة سماح صوت أفكارها بتلك الكلمات، وأخبرتها أن
تتبعها للداخل، ثم سألتها وهي تضع حقيبتها على الطاولة وتفتح
الستائر:

— كنتِ شاردة، هيا أفصحي عما بجعبتك يا حلوة.
— لا شيء، بماذا سنبدأ اليوم؟
— اسمعي يا شفق، طبيعي جداً أن نحزن، أن نُخطأ، أن نواجه الكثير
من الصعوبات، هذا جزء لا يتجزأ من الحياة، لكن هناك البعض
يعانون من الهشاشة النفسية فلا يتقبلون ذلك، وبما أنني طبيبتك
فيجب عليك إخباري بما يزعجك، كي أعلم أيها طبيعي وأيها يحتاج
علاج ووعي به، واعلمي أن ما نتحدثه هنا يدفن هنا، لذلك لا داعي
للكتمان، تنفسي بعمق وخذي راحتك وابدأي.
— هل من الطبيعي أن نخرج من المقارنة؟ بالأمس كانت لدينا سيدة
جاءت لخطبتي ثم تفاجأت بأنني الفتاة التي حدثها عنها ابنها،
وليست ابنة عمي، وكانت الجلسة عبارة عن مقارنة فيما بيننا، وهذا
أزعجني وذاته ما كنت شاردة لأجله قرب المرأة.

— بلى طبيعي جداً، نحن بشر ويؤثر فينا ذلك، ولكن الغير طبيعي هو أن يؤثر ذلك فينا لدرجة أن يُشغل تفكيرنا وينتزع ثقتنا بأنفسنا، لكل منا شخصيته، واختلافه، وتميزه، عليك أن تضعي حدود لما يُزعجك ولا تسمحي لأحد بأن يتخطاها، إن كان ذلك يُزعجك عليك أن توضح ذلك بطريقة ما.

— لكن علي احترامها، وكثيراً من الأحيان أصمت أدباً، رغم أن ما يقال قد يجرحني.

— ولكن ذلك مهم أنت لن تتحملي هذا دائماً، ما دمت راضية من البداية بأن يُستهان بك، فسيحدث ذلك مراراً وتكراراً، لست مطالبة بأن تكوني ملاكاً، صحتك ليست بهينة لتفقدوها وأنت تحاولين الصبر على الدوام.

وراحت تحدثها وتشرح لها، ويتحاوران معاً.

— اتصلت بك عدة مرات، لماذا لا تجيبين يا إيناس؟
— ألقى التحية أولاً، آسفة أنا متعبة أظنها وعكة صحية بسبب تبدل
الفصول.

— لا تزالين نائمة! لا تخبريني أنك لن تذهبي للمستشفى، ماذا عن الكائن المسكين الجميل الذي يرقد وحيداً؟! —
— آه، أهذه مكاني عندك؟ لن أذهب، حرارتي مرتفعة، وإن كان يشغلك أمره فاذهبي إليه ودعيني أنا. —
(قاطع صوت إيناس، صوت أنثوي خافت يسأل عن مدة تأثير المخدر بعد انتهاء عملية الخلع).
صاحت داليا:

— كاذبة، مخادعة، أنتِ في المستشفى وتريدين اللعب بأعصابي —
أجابت إيناس المريضة وهي تتمالك ضحكتها ثم عادت لداليا واسترسلت بالضحك بينما الأخرى توبخها.
— حقاً مريضة، ولكن لدي موعد عملية فأتيت، اسمعي تحدثت البارحة إليه، لديه قصة مأساوية على ما يبدو، حديثه كئيب، نصحته بالذهاب للطبيبة النفسية وأعطيته بطاقة عيادتكم، ربما يزوركم قريباً، لأن موعد خروجه اقترب. —
— حمداً لله هذا يعني أنه تحسن، أرحتِ قلبي، اذهبي إذن لدي الكثير من الدراسة الآن. —

فصلت داليا الخط، فوضعت إيناس هاتفها جانباً وعادت لمريضتها
تُلقي عليها الإرشادات.

"كل ما أرغبُ به
في وقتٍ عصيبٍ كهذا
أن تدومَ الشعلةُ الضئيلةُ في داخلي
لوقتٍ أطول،
أن تصمدُ أمام طوفان الحياة
وأن يحالفها الحظُّ مثل كل مرة
وتنجو!"

زكية عاطف

بعد يومين كانت عائلة أبو مازن تتحدث عن ترتيبات اليوم لأجل
خطوبة شفق، أم مازن والسيدة ابتسام كانتا تحتسيان القهوة
وتعجنا البسكويت المحلى والمملح، وبدور واقفة تتصل بمعلمتها
لتأكيد إلغاء حصة اليوم، بينما شفق تُسرح شعر أمل الصغيرة

وتجدّله على شكل ظفيرتين، وأبو مازن يتفق مع مازن على بعض الأعمال وبعض المشتريات التي عليهم إحضارها، أردفت بدور: -والدي نحتاج للتسوق، فهل تسمح لنا بالذهاب وحدنا أنا وشفق؟ -لا يا حبيبي أخاف عليكما، سيصبحكما مازن، هل عندك متسع من الوقت ظهر هذا اليوم يا بني؟ كان يبدو عليه التعب، مع أنه لم يبذل مجهوداً ولكن التعب كان داخلياً، تظاهر بالمرح قائلاً: -بالطبع، مازن سوبر مان يستطيع فعل أي شيء لعينيك يا والدي وكل شيء، لكن علي الانصراف الآن لأنني أعمالي، أنظري إلي أنت وهي، الدفع على حسابكما مهمتي التوصيل والمرافقة. -أنت ادفع ونحن نرافقك ونحميك لا تقلق. ردت بدور، فضحكت هي وشفق، ردّ بجدية: -حسناً، كونا جاهزتين قرابة الثانية عشرة، هيا أمل قبل أن تتأخر شارف باص الروضة على الوصول. قبلت أمل شفق كردّ للجميل على تسريح شعرها وانطلقت لتمسك يد أخيها ويذهبا. قالت شفق مخاطبة بدور:

— اتصلي بـ ليان من فضلك وأخبريها، تود الذهاب معنا، وتعالى معي
لنبدأ بالتنظيف، سأمسح الغبار حتى تأتين.

وقف علي يحبس دمعاته مطرقاً برأسه للأسفل، رن جرس الباب،
كانت تلك المرة الأولى التي سيزور فيها تلك الحالة الطيبة التي يحبها
ويمدح بها كل من في هذه القرية، كان بيتها صغير، تحيط به أشجار
الصنوبر من كل جانب وكأنها تحتضنه، ولديها قط صغير ينام قرب
البيت، أطلت من وراء الباب امرأة ستينية، ترتدي ثوباً زيتياً
فضفاض مع حجاب أبيض تدلى من أطرافه بعض الشعيرات الليلة
وأخرى مقمرة، عيناها عسلتان خطّ الزمن آثار العمر حولهما،
وتجعيدات يديها تحكي عن حياة ولت كان ملؤها العمل والعطاء،
تقطّب حاجباها سائلة إياه:

— أهلاً بك، أنت عليّ صحيح؟ مالك يا ولدي؟
ثم تقدمت تحمل كرسيان صغيران بجانب الشجرة، فساعدها ثم
جلس قبالتها مجيباً:
— بلى أنا علي.

—عرفتك من لون عينيك التي تشبه عينا والدتك كثيراً، نفس الزرقة الصافية.

—لقد سافرت يا خالة، أشتاق إليها كشوق الأرض للغيث، روجي تحتاج فيض عطاءها.
صمت ثم تابع:

—لقد حدثتني كثيراً قبل ذهابها عن مساعدتك لها ولكل من يطرق بابك محتاجاً مساعدة مادية أو معنوية، أشعر بأن العالم فارغٌ بدونها!.
عم الصمت برهة، مرت نسمة هواء جعلت الأغصان تتمايل مصدرة صوت حفيفها اللطيف، مسح علي الدموع التي فرت من عينيه، قالت السيدة:

—الحياة لا تتوقف يا بني، صحيح أن غياب من نحب يجعل العالم باهت، ولكن علينا المتابعة، هون عليك فهي ستعود بالتأكيد بعد مدة قصيرة.

—لا شغف لدي لمتابعة أي شيء، المشكلة أن والداي لم يسمحا لي يوماً بمغادرة مزرعتنا، ولم تكن لدي الكثير من الصداقات، بعد أن علم والداي بأنهما لا يستطيعا إنجاب طفل آخر، منعاني من الكثير من الأشياء خوفاً علي، فأصبحا هما الاثنان كل الحياة بالنسبة لي،

والآن فقدتهما معاً، أشعر بضيق شديد يثقل صدري، لم أعتد على مواجهة العالم بمفردي، وما يؤلم أكثر بأنني شاب على هذه الحال. بدأت السيدة بمواساته ونصحه واحتوائه وكأنه ولدها، فهي منذ فقدت ابنها بدأت تعوض غيابه بتقديم الحب والأمان لكل من يفقدهما، كانت تستمد معنى وجودها من تلك البسمة التي ترسم على الوجوه الحزينة إثر كلماتها، كان بيتها بمثابة صيدلية تباع فيها الأمل واللطف والحب، وتنزع أشواك الحزن واليأس، تشارك فيه الفرحة لتتضاعف، والألم ليخف.

- السلام عليكم أيتها الطيبة.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلاً ليان تفضلي.
- هل أستطيع تأجيل الموعد من فضلك، لدي حفل اليوم.
- حسناً يمكن ذلك، سنأجلها للاثنين ما رأيك؟
- جيد جداً، استأذنك الآن.

خرجت من العيادة ودخلت داليا تعلو وجهها ابتسامة مشرقة ألقت التحية وسألت عن الأحوال واتفقتا بأنهما ستذهبان معاً إلى البحر عند الغروب، هكذا هما كل يوم خميس تتفقان على مشوار يقضيانه

معاً ويتخلصا من ضغط الأسبوع، لكن اليوم سترافقهما حنين ابنة خالتهما المتزوجة.

جلسن الثلاثة في المقعد الخلفي للسيارة، عاد مازن من السوبر ماركت، رفع حاجباه باستغراب لرؤيتهن هكذا ثم غص طرفه وصعد السيارة قائلاً:

— بدور تعالي واجلسي بجانبني.

— لا أريد، هكذا تفوتني الكثير من الأحاديث.

— لن ترتحن يا أختي، شفق أتأتين؟

— منذ متى وكنت أصعد لجانبك يا مازن.

قالتا بعصبية، صاحت ليان:

— ابقيا هنا وسأجلس أنا في الأمام.

ثم تركتهما ونزلت لتركب بجانب مازن، تفاجئ مازن كان يظنها تمزح، تبادل كل من الاثنتان النظرات وضحكا.

قالت ليان:

— غداً ستتزوج شفق وتصبح مغرورة ولن نكلهما إلا بواسطة!، صحيح كيف وافقت هكذا؟ كنت أراك مترددة يا صديقتي.

شعرت شفق بالخرج فهي لا تتكلم بهذه الأمور أمام مازن ومع أنه ابن عمها، فكيف تتكلم ليان بهذه الراحة أمام رجل غريب عنها.

أجابت:

— لقد سأل عمي عنه وتحدثت معه مرتين فحسب وتبين له أنه شاب جيد وخلق، غير أنني استخرت قبل كل شيء وعسى أن ييسر الله لنا كل خير.

تابعت بدور:

— رغم أن والدته لا تحتمل بالمرّة ولكن ليس لديه غيرها في عائلته.
— ما لها والدته؟

سألت ليان بفضول فأجابت بدور:

— ألم تخبرك شفق كيف تسببت بجرحها المرة السابقة بكلامها غير الموزون؟

قاطعتها شفق:

— كفى نغتابها الآن، سامحها الله.

— ولماذا أنا لا أعلم بكل هذا؟

سأل مازن بوجوم، ردت شفق بعصبية حازمة:

— لا شأن لأحد في هذا سواي، لنغلق الموضوع، ما مشاريعكم

اليوم؟

ألقى مازن نظرة سريعة على شفق وتهد ثم تابع القيادة بصمت،
هكذا نحن أحياناً لا نستطيع أن نقسو سوى على من نثق بمكانتنا
عنده، من نشعر بأن قسوتنا لن تغيره، متناسين بأنها قد لا تغيره
لكنها تجرحه، ونفعل ذلك بلا وعيٍ منا، إن شفق لا تزال تشعر
بالقلق حيال ما سيحدث اليوم، ليست واثقة من قرارها، وربما
اتخذته فقط لترضي والدتها التي كانت سعيدة بذلك، لأنها تشعر
بأنها تُثقل على بيت عمها بمسؤوليتها، تظن بأنها قد ترتاح من كل
ذلك إن وافقت على هذه الخطوبة ولذلك وافقت، لأنها متعبة
وتبحث عن الراحة فحسب.

"من الجيد أن تبقى دون علم بما يحدث وبما يقال،
أحياناً المعرفة حُزن."

— لقائله.

في المساء كان كل شيء مرتباً ومنظماً، ومُزيناً بلمسة ساحرة، تقف شفق في الغرفة أمام مرآتها بفستانها الواسع ذا اللون البطيخي الفاتح، المرصع ببعض اللائ التي أضافت له رونقاً جميلاً وناعماً، ينسدل شعرها الكستنائي المجعد الكثيف لمنتصف ظهرها، لطالما شعرت بأنه لا يناسبها ولا حتى يشبهها، فالشعر المجعد غالباً يدل على شخصية مرحة، فوضوية، صاخبة كثيرة الكلمات والضحكات، أما هي فهادئة ونجولة، أزاحت بعض الخصلات للوراء، وأحضرت الشال ذا اللون السُّكري وبدأت ترتديه.

حضرت ليان، وبعدها بقليل حضرت السيدة عبير وابنها، تم استقبالهم بترحاب وتبادل الابتسامات الدافئة، وحضر القليل من

الأقارب، كانت الأجواء مبهجة، تقدمت السيدة عبير اتجاه شفق وقبلتها وناولتها باقة من الجوري الأحمر الطبيعي، قائلة بنبرة بدت لطيفة لشفق:

— هذه من براء، لقد اختارها لك بعناية.

توردت وجنتاها، وابتسمت عيناها وشففتها متممة بعبارات الشكر بحياء، أردفت زوجة عمها:

— كبرت زهرتنا وأصبحت تتلقى الأزهار، أزهر الله قلبك بالسعادة والرضا يا شفق.

تألق وجهها ببسمة نجولة وضاءة، وذهبت لتضع الأزهار في الماء، ما إن رأتها ليان وبدور حتى بدأتا تمازحانها:

— جاءت لتنعق الأزهار وتشرب ماءها، لأنها غير مفيدة.

— كان عليه أن يجلب باقة شوكولا، أو شيء ما يؤكل.

— كفاكما، أنا راضية هكذا.

وضعتها في إناء مليء بالماء، وقبل أن تدخل الغرفة سمعت السيدة عبير تقول:

— لا تأخذاني ولكنني لم أكن أرغب حقاً بإتمام هذه الخطوبة، ولكن براء مُصرّ على ذلك، أصدقوني القول هل شفق على علاقة سابقة مع ابني؟

— لا بالتأكيد، رأتَه عن بعد فقط وهو كذلك، لم يتحدثنا سابقاً، وإن كنت متمسكة برأيك فلماذا وافقت وأتيت؟ قلب الفتاة ومستقبلها ليس لعبة، نريد لها حياة هائلة يا مدام عبير.

قالت ذلك زوجة العم ميساء بعصبية، قاطعتها ابتسام:

— الضيفة لا تقصد يا أم مازن، كان محض سؤال.

لم تجرؤ أمها حتى على الدفاع عنها، لازالت مصرة على إتمام الأمور وهذا واضحٌ جداً، شعرت شفق بدماء باردة تجري في أوصالها، ابتلعت غصتها، وكتمت الجرح الذي تركته تلك الغصة، تماسكت واتجهت لغرفتها لتضع الورد هناك.

عند الغروب وعلى رمال البحر كانت تجلس حنين وإيناس وداليا بشكل شبه دائري، ولجانين كيسٌ كبيرٌ من الفستق والمقرمشات، وبعض الحلويات، وأمام كل منهن كأس من عصير التوت، وفي منتصف الدائرة توجد عبوة مياه، يُحركنها ليلعبن لعبة الصراحة

والتحدي، وكان الدور على حنين لتسأل داليا، سرحت برهة ثم سألت:

— هل هناك شيء تنتظرينه بفارغ الصبر؟
وما إن أنهت سؤالها حتى أضاء هاتف داليا معلناً وصول رسالة جديدة، فتحتها بتملل وغير اهتمام لترى التالي:

"السلام عليكم، كيف حالك أيتها الطيبة؟
لقد تم إرشادي إليك عن طريق أحد ما، متى أستطيع المجيء لعيادتك لو سمحت؟ بانتظار إجابتك...
دمت بخير.

— علي"

لمعت عينا داليا وصاحت مسرورة:
— مرحي، مرحي، أنا سعيدة جداً جداً جداً.
مالت إيناس بجسدها إليها وقرأت الرسالة على عجل فأردفت:
— مجنونة، ولكن افرحي هذا حقك، وعليك أن تشكريني هيا.
قامت داليا واحتضنت إيناس وقبلتها، بينما حنين تطالعهما ببلاهة، ولا تدري لماذا جُنتا فجأة، سألتهما:

— ما بك؟ ما هذه الرسالة؟ دعوني أرى.

أجابت إيناس:

— أتذكرين سؤالك؟ ها قد أتى الجواب، داليا كانت تنتظر أول أحد سيأتي لتعالجه وتأخذ علامة الامتحان العملي، كانت تدرس وتعمل بجد منتظرة هذه اللحظة ووصلتها الرسالة لأجل ذلك.

— صحيح يا حنين، تخيلي، أخيراً.

قالت ذلك والضحكة تملأ وجهها، فباركت لها حنين، وأعادوا تدوير عبوة المياه من جديد، كانت الأجواء حينها جميلة جداً تحت ضوء القمر الذي أبلج في السماء بعد الغروب، والنسمات الباردة العليقة تنعش القلب، ويخالجك الشعور بالراحة والاسترخاء.

طرق مازن باب المطبخ باتزان، ونادى بدور ليأخذ الحلوى والقهوة، فأذنت له بالدخول، سأها:

— وحدك هنا؟! أين شفق؟

— جهزت القهوة وقالت: لديها اتصال مهم وهربت، بصراحة لم تكن طبيعية، أنا قلقة يا مازن.

تساءل باهتمام وقد تسرب إليه القلق:

— ما بها يا بدور؟

— كانت مسرورة، متألفة كالأميرات، باسمه الشجر قبل قليل، وفجأة بهتت عيناها، وشحب وجهها، وصمتت تماماً، لا أدري ما أصابها!

شعر بنخزة في قلبه، قال بنبرة حاول جعلها مطمئنة:

— مجرد خوف من الارتباط، وربما متعبة من العمل طوال اليوم، اذهبي وكلميها، سيناديها أبي بعد قليل، حاولي فهمها وخففي عنها إن كانت مرتبكة يا بدور.

— حاضر يا أخي.

حمل الصينية ومشى باتجاه الباب، دلفت أمل مسرعة كادت تصطدم بأخيها وتسقط ما بيده، أنها وأكمل طريقه:

— انتبهي يا صغيرتي.

أمسكت بطرف بنطاله قائلة بتلعثم وهي تلهث بخوف:

— مازن أرجوك انتظر، ماما لا تسمعي.

توقفت تمسح دموعها بيدها واليد الأخرى لاتزال تمسك بينطال مازن، تابعت:

—شفك (شفق) كانت تبكي في الشرفة وهي الآن تقف على الحافة، ذلك ختر (خطر) ستموت أرجوك أنزلها، إنها لا تسمعني.
تسارعت نبضات مازن ما إن سمع ذلك حتى سقطت الصينية من بين يديه، فأفزعت كل من في البيت، وانطلق راكضاً مسرعاً للشرفة.

كانت تقف على حافة الشرفة بجانب أصص الزرع على علو خمس طوابق، فستانها يتمايل مع نسيمات الهواء، اقترب منها بحذر وهدوء، ناداها فلم تجبه، كرر النداء فتكررت ردة الفعل المعدومة، كانت تبدو كأنها ليست في وعيها لا تسمع ولا تُجيب ولا ترى، صرخ بها:

—شفق انزلي أرجوك.

استدارت نحوه ببطء، قطبت حاجبها لرؤيته، ثم ابتسمت ببرود ولوحت بيدها أي وداعاً، وأبعدت أول قدم لتخطو للأسفل، عندها فقد مازن أعصابه ولم يعد يستطيع السيطرة على نفسه اقترب منها وانتشلها بقوة وسرعة من على الحافة، كانت تقاوم بقوة وتحاول

التمسك بما حولها من الأشياء لتزيد من قوة الشد وتبتعد عنه، وقع الأصيل الذي تمسكت به أرضاً، كان واضحاً جداً بأنها لا تدري ما الذي تفعله، يخاف أن يوجعها بقوته ولكن في المقابل خوفه من إفلاتها كان أكبر، ستؤذي نفسها بالطبع، حاوطها من الخلف يضمها إليه بقوة كي تهدأ ولا تتحرك ومع ذلك كانت تضربه بقسوة لتفلت، اجتمع في الشرفة معظم الضيوف من النساء، صاح مازن: —أمل أخبري بابا بأنني أريده هيا بسرعة، وأرجوكن فلتعدن للداخل.

صاحت السيدة عبير بصدمة:

—ماذا يحدث؟ ما بها؟

حاولت السيدة ميساء إدارة الأمر، وإعادة الناس للداخل، ولكن السيدة ابتسام كانت تقترب من ابنتها باكية من خوفها عليها، والسيدة عبير غاضبة كالمجنونة وتريد فهم ما يجري، أما ليان كانت تبكي على صديقتها ولكنها انتبهت فجأة بأنها بلا حجاب فركضت للداخل وجلست تدعو لها من كل قلبها.

لم تهدئ دقائق قلب مازن كانت تتسارع بجنون ليس لرؤيتها بهذه الحالة الغير طبيعية فحسب بل لوجوده بهذا القرب منها ولأول مرة

في حياته، حضر السيد سعد أخيراً ومعه براء، كان يدري بأن هناك مصابٌ ما لكنه لم يتخيل حدوث كل هذا، رُسمت الصدمة على ملامح سعد بإتقان، لرؤية شفق بتلك الحالة بين يدي ابنه، رفع حاجبيه واقترب منهما وسحب شفق إليه ومسح على رأسها بحنان وهو يسمي الله عليها، ثم ضمها إليه فاستسلمت وهدأت، كانت قواها قد خارت من كثرة المقاومة والمحاولة للإفلات من مازن.

نظر براء بصدمة بدأت عيناه تجوبان المكان الذي عمت فيه الفوضى وكأنه يبحث عن الإجابة.

شفق في حضن عمها سعد تبكي بهلع غير مدركة لواقعها، مازن جالس في مكانه ما زال يداري قلقه وقلبه يرتجف قبل يداه، بدور تحرك أصص الورد المكسورة من المكان، ابتسام واقعة على ركبتها من الخوف وهناك احتمال كبير أن ضغطها قد ارتفع، وميساء تهدأ من روعها، وليان تحاول البحث عن قطعة قماش لتغطي شعرها وتخرج إلى صديقتها، والسيدة عبير بدأت تشعر بأن هناك سر لا تعرفه عن هذه الفتاة التي لا تطيقها، حملت حقيبتها وسحبت ابنها براء خفيةً وهي تهمس له:
— هيا لنخرج من هنا حالاً.

— عيب يا أمي، على الأقل ننتظر أن تهدأ الأمور، ونفهم ما حدث.
— لا وجود لأي أمور بيننا منذ هذه الدقيقة.
— أمي...

— اسكت ولا تدعني أرى لسانك ينطق بأي كلمة أخرى، تركتك
تدير كل الأمور على راحتك، الآن لن أفعل، هيا بنا وإلا غضبت
عليك.

رحلا بهدوء تام دون أن يلقي كلمة مطمئنة في المكان، وسعد يراها
وهو بلا حيلة ويقول في نفسه: (سامحك الله يا أخي، لقد تركتني بلا
حيلة ورحلت)

تركوا ليان عند شفق في غرفة النوم، والعائلة كانت في الصلاة
جالسة تفكر، كل واحد مع نفسه، الهدوء يخيم على المكان، ولكن
هناك ضجيج يملأ عقولهم.

كلُّ يحاول أن ينسى ما حدث بالغضب، ابتسام قلقة على ابنتها
جداً، ولكنها بحال صعب، تعيش مع شقيق زوجها فتخجل مما
حدث وتلوم نفسها وتقول:

— أعتذر لكم عن ما حدث، أنجلناكم مع الضيوف، والحفل انتهى
قبل أن يبدأ وأود أن...

— فليذهب الحفل والضيوف إلى المجيم يا خالة، فليذهب كل شيء

ولا تذهب شفق.

— مازن، تحلى ببعض الأدب وأنت تكلم زوجة عمك.

— أعتذر...

— لا تقلقي يا أم شفق، المهم صحتها وهي ابنتي كما بدور وأمل، هناك

خير في كل شيء.

ذهب مازن لغرفته، وخلع ملابسه ليأخذ حماماً بعد ما عانى من

تمزق لثيابه وتعب لجسده، ولكن برغم ما حدث كان هناك شعور

خفي في قلب مازن، شعور عذب بأنه كان يحاوط شفق بكلتا يديه

وكانت في حضنه، حتى وإن جاء هذا الشعور في وسط فوضى،

لكنه لا ينسى، شعور يمتنى أن يعيشه في الحلال بكل حب.

صلى بعد أن انتهى ودعا الله بأن يحفظها ويرزقه إياها، ويلطف

بقلبه المعذب إلى ذلك الحين.

وَلَيْتَ الْقُلُوبَ كَالْعُيُونِ..
نَسْتَطِيعُ إِغْلَاقَهَا حِينَ تَوَلَّيْنَا..
لقائله.

بمريولها الأبيض وحجابها النيلي كانت تجلس في عيادة الطبيب التي
تشرف على تدريب وعمل داليا، طرق الباب فأحالت الأوراق التي
تقرأها جانباً وأذنت بالدخول، دلف بخطى مترددة للداخل مرتدياً
بنطالاً وقميصاً باللون الأسود، تفاجأ عند رؤيتها، ألقى التحية
وجلس قبالتها متسائلاً:

ألسِتِ تلكِ ال...

قاطعته داليا بابتسامة:

بلى هي، أهلا بك هلاً تفضلت بالتعريف عن نفسك؟

عليّ، خمس وعشرون سنة، ما الذي تودّين معرفته أيضاً؟

حدثني عم تريده أنت، ما سبب مجيئك إلى العيادة أستاذ علي؟

—فقدت رغبتى بالحياة!.

أتعلمين أيتها الطيبة إننا عندما نحب الحياة نرى لكل شيء فيها لونٌ مختلف، كله جميل، دافئ، مبهج، لكل شيء لونٌ خاص، ثم نحاول ترتيب ما أهم لونٍ لنا ونسعى إليه، ونجرب غيره أحياناً للاستمتاع بشيء جديد، ولكن فجأة عندما يختفي حبنا لها، نراها بلونٍ واحد، كئيب، ممل، تتساوى في نظرنا كل الأشياء، وكأنه لا شيء يستحق لنكمل لأجله.

—منذ متى أنت فاقدٌ للشغف هكذا؟

قالتها بمرارة وهي تراقب حاله المنطفيء.

—منذ شهرين تقريباً ولكن لم يكن الأمر متطوراً إلى هذه الدرجة.

—لماذا لم تبحث عن علاج حينها؟

—كنت أظن أنني سأتحسن للأفضل، لكن منذ الحادثة وخاصة بعدما خضعت لعملية التجميل، أنا لم أعد أنا، تمنيت لو كانت هناك عمليات تجميل للأفكار التي تراودنا، للمخاوف التي تنهش بنا، للمشاعر الأليمة التي تداهمننا ولا نعرف كيف نتصرف حيالها، كانت الجروح التي تحتاج لعملية هي جروح داخلية، لا يراها أحد ولا يشعر بها سوانا.

— ما الذي زاد من حدة الأمر؟ في العادة تكون هناك أسباب كثيرة خفية، بينما حدث واحد فقط يجعلك تتذكر كل ذلك وتمر بحالة الانطفاء هذه، فيكون بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير.

— ربما سفر والدتي.

— أعادها الله لكم بالسلامة، حسناً ماذا حدث قبل شهرين؟

— أود الاحتفاظ بذلك لنفسي وعدم الحديث به.

— مع أنها ستفيدنا لكنني أحترم رغبتك، هل تعاني من اضطرابات في النوم وتعب وإرهاق غير مبرر؟

— نعم دائماً.

— وما الذي تزامن أيضاً مع هذه الأشياء؟

— كوابيس أحياناً وقلة شهية، لدرجة أن يمر اليوم كاملاً بدون أي وجبة.

— قد تأكدت الآن مما تعاني، سأكتب لك بعض المهدئات وعن أوقات تناولها، وعليك أن تهتم بغذائك جيداً، أرجو الالتزام بذلك، اتفقنا؟.

وابتسمت ابتسامتها الوضاءة، بادها بسمه مصطنعة قائلاً:

— اتفقنا، يمكنك أن تخبريني بما توصلت إليه؟.

رفعت رأسها ناظرة إليه وأكملت كتابتها، ثم سلمته الورقة مردفة:
— لا تقلق، إن عاجله باكراً فليس هناك خطر وستعود لترى الحياة
جميلة، إنها بداية اكتئاب.

تنهد وطوى الورقة ثم وضعها في جيبه، ووقف شاكراً إياها خارجاً
من العيادة، نادته داليا:

— ابتسم وعدني بأن تكمل ما بدأته اليوم، الكثير من المرضى يكتبون
بالجلسة الأولى.

أوماً لها بالإيجاب وخرج، وما إن أغلق الباب، حتى انفجرت داليا
بالبكاء وهي تتمتم:

— تباً للعلاج النفسي وللوقت الذي قررت فيه دراسته، كيف
سأستطيع ألا أبكي أمامهم ولا أواسيهم ولا أربت على أكتافهم،
كيف سأزيح قلبي جانباً وأنا أعمل؟

يا الله يملك أجمل عينين في العالم كله، ولا يرى جمال الحياة فيهما!
بكت قليلاً ثم قالت بحزن:

— لو كان بإمكانني أن أجد عصا سحرية ألون بها الحياة لكل حزين، لو
بإمكانني توزيع الطمأنينة على القلوب الخائفة، يا رب أعطني القوة
لأتابع ما بدأت به، وهونه علي فهو عليك هين.

"ليتني استطعت إخبارك أنني لم أتصنع أياً من تلك الكلمات التي
كنت أسردها لك بشكل عفوي، كل شيء خرج من في كما
شعرت به في صدري، وكانت هذه مشكلتي الأبدية."
لقائله.

كانت كل من بدور وشفق تحتسيان القهوة في المطبخ، تحكي بدور
لشفق عما حدث ليلة البارحة، وشفق صامته بعجز، أقبل مازن
ملقياً تحية الصباح، سألهما:
— كم الساعة يبدو بأني قد تأخرت في النوم، هل ذهب والدي؟
— التاسعة والربع، نعم وقد ذهبت أمل معه قبل قليل، لا بأس
جميعنا نحتاج أن نتجاهل منه الاستيقاظ يوماً ما وننام براحة.
قالت بدور، فأكل مازن:
— سأتوضأ لأصلي الضحى وآتي، جهز لي قهوتي، صحيح لم لم تذهبا
لدوامكما؟

أجابته شفق:

— لن أذهب اليوم، لدي موعد عند الطبيبة كلمتها وأخذت موعد،
وبدور دوامها عند العاشرة، تقريباً سننزل جميعاً معاً.

صمت قليلاً ثم تابعت:

— مازن، أريد التحدث معك.

كاد يمشي فتوقف برهة، ثم استدار قائلاً بلطف:

— سنتحدث مساءً أو في الطريق، اتفقنا؟

— اتفقنا.

عند العاشرة أوصل مازن بدور للمعهد، وسأل شفق عم كانت تريد
الحديث بشأنه.

— أنا آسفة.

— عمّ تتأسفين؟

— عن كل ما سببته لك من متاعب البارحة.

ارتبك وتسارعت دقات قلبه عندما أتت على ذكر البارحة، "يبدو
بأنها علمت من تلك الثرثرة بدور كل شيء" قال في نفسه، ثم
أجابها بصوت يحمل بعض الإحراج:

—بصراحة أنا من عليه الاعتذار، قد أنجيتك أمام الحضور وخاصة براء، ولكن صدقيني كنت مضطراً لذلك وسأشرح ذلك لخاطبك بنفسي، شفق، أنا الذي أخاف عليكِ حتى من نفسي لم أحتمل رؤيتك بتلك الحالة، ولا أستطيع تخيل ما كان سيحدث لو لم أتدخل بتلك الطريقة حينها!.

خالجها شعور غريب لم تعتده لسماع كلمات مازن، أخفضت رأسها صامتة لا تجد رداً، أحياناً تبدو اللغة واسعة جداً لتشكل آلاف الكلمات، وأحياناً تضيق فلا تُشكل كلمة واحدة، ثم أردفت وكأنها تذكرت شيئاً:

— ما كنت سأحدث بشأنه عن شيءٍ آخر، لقد طلبت مني الطيبة إحصارُ أحد من عائلتي يعرفني جيداً، هل لك أن تأتِ معي؟ لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، أعتذر مجدداً لإثقالتي عليك بالطلبات دائماً.

ابتسم قائلاً:

— لا تتأسفي يا شفق، فأنتِ عزيزةٌ وكل ما تطلبينه ليس بعزيز، سأنزل معك، بالمناسبة هل نقد نبع الشكولا عندك؟ ضحكت قائلة:

- ليس نبعا، إنها ك بحيرة صغيرة وجافة حالياً.
- حسناً، ستمطر اليوم حتى تصبح نبعا.
- وصلا للعيادة، وصعدا معاً، أقبلت السكرتيرة طالبة من مازن الدخول إلى مكتب الطبيبة وحده، وعادت لمكانها بعد أن سلّمت على شفق، دلف للداخل كان مازن شاباً طويلاً، أبيض البشرة، بني الشعر والعينين، يرتدي بنطالاً بلون بني فاتح وقيصاً زيتياً، جلس قبالة الطبيبة بوجه بشوش، رحبت به قائلة:
- أهلاً وسهلاً، عندي بضعة أسئلة وأتمنى بأن تجيب عليها بصدق وصراحة من فضلك، أنت من أقاربها صحيح؟
- مازن ابن عمها، تفضلي حضرة الطبيبة.
- هل تعبر شفق عن مشاعرها أمامكم بالمنزل؟
- أطرق يفكر ثم أجاب:
- أحياناً وليس دائماً، لكنها هادئة وصامتة معظم الوقت.
- هل تعرضت لصدمة ما في حياتها؟ خاصة في فترة الطفولة؟
- ربما حينما توفي والدها، لا أدري إن كنتُ على علم ولكن والد شفق كان مدمن مخدرات، وقد توفي إثر حالة جنونية بجرعة زائدة

بعد حرمانه من ذلك المخدر لعدة أيام، ولذلك فإن ما عاشته في طفولتها يفوق الصدمة يا حضرة الطيبة.

— هل لديكم تاريخ وراثي بأي نوع من الأمراض النفسية؟ وما هي لو وجدت؟

— لا أبداً.

— حسناً نأتي للأهم الآن، هل لاحظتم شيء متكرر عند نوبات الانتحار المفاجئة تلك؟

— ما تكرر هو اختيارها لرمي نفسها من الشرفة وقد تكرر مرتين.

— ألا تذكر ما حدث في كلتا المراتين قبل ذلك؟

— للأسف لا، أنا شاب ولا أتواجد دائماً في المكان ذاته معها لأعرف ما الذي جرى تماماً، لكن عائلتي تقول بأن الأمر مفاجئ، تكون سعيدة ثم تحزن فجأة وتتصرف وكأنها ليست في وعيها.

— حسناً أستاذ مازن، أشكرك للحضور والتعاون معي.

— هل توصلتِ لشيء بشأنها؟

— ليس بعد، صحيح قبل ذهابك أود سؤالك، توصلتُ من حديثها بشكل غير مباشر أن والدتها سبب موافقتها على الزواج، وكأنها ليست مقتنعة بذلك، هل لديك فكرة عن الأمر؟.

—بصراحة لا، على العكس تفاجأت بسماع ذلك، سأحاول الانتباه لذلك وسأخبرك بما أتوصل إليه.

اشترى علي الدواء واتجه للمسجد صلى وقرأ قليلاً من القرآن ثم ذهب لمنزل السيدة أم خالد التي يجد في كلامها أنساً لوحده، ويرى فيها أمه الغائبة، وكذلك الفسحة في منزلها تروح عن النفس حيث اللون الأخضر يحتضن المكان ورائحة الزهور تدغدغ الأنف بلطف، نصحته بالقراءة قائلة :

—أتلو القرآن يا ولدي ففي سورة البقرة دواء لكل داء وراحة لكل متعب، وسكينة لكل خائف، داوم عليها وانظر للخير والبركات التي ستلف حياتك، واختر الجميل من الكتب والذي يعيد لك معنى الحياة ويذكرك بالنعم التي تحيط بك من كل جانب، ولا تنس أن في التسبيح نوراً لكل ظلمة يا علي.

ردد علي بألم:

—حاضر يا خالتي سأحاول، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

كانت شفق تحضر السلطة وبدور تنظف الأطباق وهما يتبادلان

الحديث، سألت بدور:

—أها وماذا قالت لك؟

—أخبرتني بأن انتبه أكثر لما يزجني وأدونه مباشرة، حتى نجد سبب

ما أدى للانتحار، وبأن هناك موقف ما يتكرر فأفقد وعي وإدراكي

واتصرف بلا وعي وهذا الموقف متخزن في العقل الباطن، لا

أدري هذا ما فهمته منها.

—وماذا قالت بشأن براء؟

—نصحتني بأن هذا ليس الوقت المناسب، عليّ التآني وإعادة التفكير

بالأمر، على كل حال أظن أن الأمر انتهى بعد ما حدث يا بدور،

صحيح كيف درستك؟

—جيدة، تزحف زحفاً، ههههه إنها بخير لا تقلقي.

كرر الاتصال ثانية ولا أحد يجيب، رمى الهاتف جانباً واتجه للمطبخ

فتح الثلاجة وتأملها لبرهة، يفكر فيما سيطهوه اليوم، ولكن لا شهية

له لتناول الطعام، أغلقها بلا مبالاة عند سماعه رنين الهاتف مسرعاً

ليجيب، أخيراً سيظمن عليها.

- كيف حالك يا أمي؟ متى وصلت؟
— أهلاً علي، الحمد لله أنا بخير وصلت البارحة بعد منتصف الليل،
كيف حالك يا ولدي؟
— علي خير ما يرام، أشتاق إليك.
— كيف العمل؟
— منقطع عن كل شيء، أخاف أن يعثروا عليّ ويتم تهديدك بي
لتعودين.
— لا تخف يا قلب والدتك، لن يستطيع أحد أن يؤذيك ولا يؤذي
انتبه لنفسك جيداً حتى عودتي.
ردت والدته بذلك ثم أغلقت الخط، إن الفراغ هو سبب كل
مشكلة، لولا الاختفاء الذي هو فيه وحالة الانطواء التي تربى عليها
لكان الآن لديه ألف صديق يكلمه يخرج معه ويأتي إليه، لكان في
حياته بعض المرح والشغب، كل الأشياء تحتاج كتفاً لتميل عليه
حتى يعود توازنها، لكن وحدته كانت أقصى من أن تمنحه مجرد
شبح لشخص، عليه أن يبحث عن أي عمل حتى يكسب قوت يومه
ولا يبقى على هذه الحالة، مسلماً نفسه للفراغ وللأفكار السوداء

والذكريات المؤلمة، والآن سيتوضأ لبدأ بالانتظام على تلاوة سورة البقرة يومياً كما أوصته الخالة أم خالد.

تململت داليا في جلستها، خالتها تطهو الطعام في المطبخ وسالم الصغير ابن خالتها يلعب أمامها، وإيناس منذ ساعة انتهت من تنظيف الأطباق وذهبت لتجهز نفسها من أجل الخروج مع داليا، هكذا هي دائماً لا تخرج قبل أن يكون كل شيء جيد تماماً، عادت مريم للمنزل ألقت التحية على داليا وجلست ترتاح وتنزع حجابها متأففة ثم نظرت إليها قائلة:

— كيف تحملون هذا الشيء، أكاد أجن منه.

— ستعتادين يا مريم، البداية صعبة فحسب، ثم إنه عبادة وهو ما يُميزنا، الحجاب دليل على الهوية الإسلامية فعلينا أن نعز به يا غاليتي.

— لكنه لا يليق بي ليس مثلك، إنه يجعلني قبيحة.

— على العكس إنك أميرة، ثم من قال لك بأننا نضعه لنبدو جميلات؟!، لست قبيحة أبداً لكن وجهك لا يزال صغيراً فتشعرين بأنه لا يليق بك، نحن نضع الحجاب لنخفي زينتنا وجمالنا لنرضي الله

ونتقرب إليه هذه غاية المحاب، صدقيني نظرة رضى من الله ترفع
درجاتنا عنده خيرٌ لنا من نظرة إعجاب الناس والله غاضبٌ عنا يا
حلوتي.

فجأة أقبلت إيناس تصيح:

— هيا يا داليا لقد تأخرنا هيا.

ودعت داليا الجميع وذهبتا معاً.

— لماذا تأخرتِ هكذا؟

— كنت أكلّم حنين، أتعبتني من مشاكل بيتها ثم اعتذرت لن تأتي

معنا لأن ابنتها مريضة وطلبت أن نمر عليها عند عودتنا من الحفلة.

— عافها الله، تعالي لنشتري هدية أولاً، هناك محالٌ ممتازة هنا تمهلي.

تستحق

ولو لمرة واحدة
أن يحاول من أجلك أحدهم
- بلا تردد أو حيرة -
أن يبذل كل ما في وسعه،
كي يحصل عليك.

— لقائله.

— صباح الخير.

— صباح النور يا ليان كيف حالك؟.

— اشتقتُ إليك، كيف أنتِ الآن، وماذا حدث في تلك الليلة؟

صحيح لماذا لم تجيبي على هاتفك منذ يومين؟

— الحمد لله، لي الحق بأن أرتاح ليخف ذكر تلك الليلة على نفسي،
وأعلم تماماً أن الجميع سيطمئن علي ويذكر ما حدث ثانية، ولا أود
سماع ذلك، لم يحدث شيء هدأت وزرت الطيبة في اليوم التالي
فحسب، وغبت عدة أيام لأرتاح.

— عافاك الله غالية قلبي، كيف أمورك مع براء؟

— دعينا نتمشى بهدوء، كل هذه الأسئلة منذ الصباح يا ليان، أهذا
تحقيق؟

— فضولي سيقتلني، اسمعي سأشتري لك القهوة على حسابي لأنني
سأتعبك بأسئلتني.

— لم أره ولم أتحدث معه، وقد حذفنا أرقام بعضنا منذ تقدم
لخطبتي، تكلم معه عمي ومازن واعتذرا منه شارحين له الأمر.
— لماذا حذفته رقبته؟

— لا أريد الكثير من الكلام ثم إنها خطوبة فحسب، لو أكلنا معاً
نأخذه مجدداً.

ردت بضحكة:

— انظري من أتى، أذكري القط يأتي وينط.

— اسمعي يا شريرة، عندما يحدثني لا تتكلمي عني ولا تدعيني معه
وتذهبين فهمت؟

أقبل براء بقامته الطويلة وملابسه الرمادية كالعادة معظم ما يرتديه
بهذا اللون، ثبت نظارته بسبابته، وألقى التحية عليهما فردتاها بهدوء.

سألها:

— هل يمكننا الحديث قليلاً يا شفق.

ردت بخفوت:

— حسناً.

— اعتذر عما بدر منا يوم الحفلة، لكنني كنت سعيداً جداً، ثم
تفاجأت ولم أكن أفهم ما يحدث.

— لا تعتذر، أنا لا أتذكر ما حدث، وآسفة لأنني أفسدت الحفلة.

— قدر الله وما شاء فعل، لعله خير، تحدثت مع عمك وعلمت بأنك
مريضة ولديك مشكلة نفسية فعذرتك، هل بإمكانني حضور إحدى
جلساتك لافهم كيف صحتك؟

شعرت بالغصة تقف في منتصف حلقتها كالشوكة، ردت متدركة
مرارتها ومخفية انكسار خاطرها:

— الأمور بخير، أتعلم والدتك على حق ما الذي جعلك تختارني؟ براء
أنت تستحق الأفضل.
— لكنني أريدكِ أنتِ يا شفق.

نظرت للأوراق بيدها لهنية من الزمن ثم ردت:
— حالتي غير مستقرة، ربما أخيب أملك، ثم إن أمك غير راضية
عني.
— ثقي بنفسك، أنا رجلٌ عند كلمتي وهذا الزواج يعينني أكثر من
غيري، لا تقلقي أُمي طيبة جداً، لكنها تعرضت لأيامٍ قاسية فقست
كلماتها وتصرفاتها، أنا واثقٌ بأنها سترضى.
صمت ثم تابع:
— وستحبكِ كثيراً.

شعرت بالدفع لثقتك تلك بأن أمه ستحبها، هل جربت يوماً شعور
أن يخبرك أحداً ما بأنني أعتقد أن هذا الشخص سيحترمك أو
سيحبك، ذلك يدل على أن هذا الشخص يكن لك تلك المشاعر

لدرجة أن يرى أن على الجميع الشعور بما يشعره هو اتجاهك، فكيف إذا بالثقة وليس بالاعتقاد فحسب!.

صمت قليلاً ثم أردفت:

— أنا واثقة بنفسي، ولكن.....

— لكن ماذا؟ لا تريدن الإكمال معي؟

أخذت نفساً عميقاً ورددت:

— ليس كذلك، لكنني لا أعرف ما يمكن أن يحدث معي يا براء،

لذلك لا أريد أن أورطك معي، أتفهم ما أعنيه؟

— فهمت، لكنك تبالغين في خوفك، ستكون الأمور على ما يرام،

وكلي أمرك الله، أقبلي على الحياة، شفق أنا غير مستعد لأخسرِكَ أو

لأتحلى عنكِ، لكنني أريد الاطمئنان عليكِ فحسب فطلبت حضور

جلسة ما، وسأبقى معك لحين انتهاء العلاج، فانظري متى يناسبك

الوقت وأرسلني لي رداً مع عمك، هل تحتاجين شيئاً؟

كان على وشك الذهاب، لم يترك لها مجالاً للرد، لكن كلامه بدد

ضيقتها قليلاً، ردت:

— سلامتك.

— أستودعكم الله.

ومضى في طريقه باتزان، قالت ليان:

شفق بماذا تشعرين بعد هذا الحديث؟

— تأخرنا عن المحاضرة سأحدثك عندما أعلم أنا ما نوع المشاعر التي
أشعر بها، لأنني لا أعلم.

— أنت اليوم كتلة كآبة يا داليا، سأرميك من النافذة بعد قليل.

— آه يا إيناس لا أحتمل ما حدث، أخذته الشرطة من أمام عيني
تخلي، يا ترى ما الأمر، أيمكن أن يكون متورط بأمر ما؟ مجرم؟ له
سجل سابق عندهم؟ سأموت حينها، وإلى ذلك الوقت الذي
سأعرف فيه سأموت من الخوف عليه.

— أو ستموتين لأن الرمية ستكون مؤلمة، ضاق صدري بك.

— أتعلمين إن أقسى ما قد تمرين به هو معرفة شخص متألق، قوي،
مضيء، ثم رؤيته عند انطفاءه! هذا لا يُحتمل تتمنين فعل أي شيء،
ولكن العجز يقتلك، وقلبك يحترق على حاله، أحمد الله مئة مرة
أنني لم أعرفه قبل اكتئابه، أنا بالكاد أوقف دمعاتي حينما استمع
إليه.

— مادام قلبك لينا هكذا، لماذا دخلتِ الطب يا غبية؟
— إيناس اصمتِ، لست بأفضل مني، إن رأيتِ كلباً مشرداً تبكين
وتكتئين لأجله، وها أنتِ طيبة الآن!

أضاء هاتف داليا معلناً وصول رسالة فهرعت إليه:

"السلام عليكم

أريد أخذ موعدٍ للغد بعد إذنك.

وسأشرح لك ما حدث حينها.

دمت بخير.

علي"

— من المرسل يا داليا؟ أخيراً ابتسمت!

سألت إيناس بنزق، ردت داليا ببسمة بعد أن نهضت بنشاط:

— إنه علي، اطمأن قلبي أخيراً، الحمد لله، ذاهبة لأحضر بعض

الفشار.

زفرت إيناس:

-رحم الله أياماً كنت فيها عزيزة، الآن لم أعد نافعة بعد معرفتك لهذا الإنسان، أنا السبب، كنت حمقاء حينما عرفتك عليه.
تجاهلت داليا ذلك ومضت للمطبخ، تبعها الأخرى لتحضر الشاي وتكمل سلسلة التائب والتحسر على الأيام الخوالي.

في جلسة المساء الهادئة، أعدت شفق الشاي والكعك وضيّفت الجميع ثم جلست تتأهب لفتح الحديث، أردف العم سعد:
-قولي ما لديك يا شفق، أشعر بأنك تودين التحدث صحيح؟
ضحكت وخف توترها قليلاً، ردت:
-كيف عرفت يا عمي؟
-أعرفك جيداً يا بني، هيا تفضلي.
-لقد ألتقيت ببراء صباح اليوم.
كان مازن يدون بعض الأشياء على قائمة طويلة، فترك ما في يديه وراح يتابع الأمر بعينه، سألت والدتها ابتسام:
-وماذا جرى؟ عمّ تحدثتما؟
-طلب أن نفتح صفحة جديدة، ونعطي أنفسنا فرصة أخرى.

— وبعد؟

سأل مازن هذه المرة، تجاهلت صوته وبقيت تنظر لعمها متابعة:

— وقد طلب موعد لحضور إحدى جلسات علاجي، يريد لقاء
الطبيبة.

سأل العم سعد:

— وماذا عنكِ يا بنيّتي، أكان هو المتحدث فقط؟ ما رأيكِ ماذا قلتِ
له؟

— كنت أريد رفض ذلك.

قاطعتها والدتها:

— ألم يعتذر وستفتحان صفحة جديدة!، هو ليس مخطئاً بحقك
لترفضي، فالحفلة ألتغت بسببنا.
تدخلت أم مازن السيدة ميساء قائلة:

— دعي الفتاة تتحدث براحتها يا ابتسام، ثم إن لها حرية الاختيار،
أكملي حبيبتني.

تابعت شفق:

— رفضت لأنني لا أريد أن أظلمه معي، لقد خيبت ظنه في أوج
فرحته، براء يستحق الأفضل.

— براء يستحق غيرك، وليس الأفضل منك لأنه لن يجد ذلك، عليك أن تثقي بنفسك أنتِ تستحقين أشخاصاً يقدرونك وليس كوالدته التي لا تتوانى عن إزعاجك.

قاطعها مازن بذلك، ابتسمت ناظرة إليه وتابعت:
— على كل حال أنا لا أود الارتباط الآن، لكن براء عارض ذلك وأخبرني بأنه سيكون على استعداد ليتحمل كل شيء ويبقى معي حتى أتعافى.

صمتت وراحت كلماته ترن في أذنيها: "أنا غير مستعد لأخسر!"،
سألها العم سعد:
— وماذا أجبتَه؟

— لم أعطه إجابة، أيمكنك إعطائي رقمه يا عمي إن أردتُ محادثته.
تمنى مازن أن يضع الهاتف أو يضع الرقم، أو يضع هذا البراء كلياً ويرتاح منه.
رد العم:

— لا يجوز يا بني، قد تكثر المحادثات بينكما بلا داعٍ، حينما تتخذين
القرار حدثيه من هاتفي، أنت زهرة البيت يا بني لا تجبري نفسك
على ما لا تريدينه.
ابتسمت متأثرة في كلامه، وابتسم مازن يتمنى بقاء رفضها
وابتسامتها.

قالت بدور:

— أبي، خذنا لمزرعة الريف غداً، منذ زمن لم نذهب أيام العطلة،
أكاد أختنق من كثرة الضغط والدروس.
قالت السيدة ميساء:

— نعم يا أبا مازن، دعنا نذهب هذا الأسبوع.
— أبشروا يا أعزائي، سنذهب ولكن بشرط؛ عند الثانية ظهراً
سيكون كل شيء جاهزاً لا نود تأخير.
قال سعد، فأوماً الجميع موافقاً، صفقت شفق:
— يا سلام، نحتاج ذلك فعلاً.
استدركت قائلة:

— مع الأسف، لدي موعدٌ مع الطيبة عند الرابعة عصرًا، سأحاول
إلغاؤه.

قاطعها مازن:

— إذن انتظريني في المنزل وسأخذك معي مساءً، لأنني سألحق بهم
عند السادسة أو السابعة حسب ما يقتضي العمل، لا تلغيه.

قالت ابتسام:

— حسنًا فلتبقى بدور معكِ وتلحقوا بنا مساءً.

عندما نغفو ونحن ننتظر شيئًا، نستيقظ بكامل نشاطنا وطاقتنا،
والعكس تمامًا فإننا حينما نفقد الأمل والقابلية على الحياة يصعب
علينا النهوض من الفراش، إننا حينما نأيسُ نُصبح كسالى أكثر من
اللازم، أما إن دق الأمل أبواب قلوبنا، نشرع النوافذ على مصراعها
ونفقد الرغبة بالنوم.

استيقظت داليا بوجه بشوش، وسعادة لسلامته يشوبها بعض التوتر
مما سيقصّه عليها، رتبت فراشها وشربت قهوتها على عجل، وقفت
تضع الحجاب على المرأة وهي تعقد صفقة مع نفسها، بأنها ستكون

قوية، لن تضعف، فيليق بها أن تكون بمثابة النور لشخص قابِيع في الظلام.

ابتسمت وانطلقت للعيادة، استقبلتها الطيبة سماح عند المدخل، اطمأنت عليها ثم قالت:

— داليا أقدر عملك، وأعلم بأنك تبذلين جهدك، لكننا لا نريد مشاكل، لماذا حضرت الشرطة إلى هنا؟ كنت متفرغة البارحة وعدتُ إلى العيادة لأرى كيفية عملك وأقيم طريقتك مبدأياً، فرأيت الشرطة، ثم خرجت من هنا باكية!

ما الذي يجري يا داليا؟ لما البكاء؟!

— لن يُعاد ما حدث البارحة، أعدك دكتورة سماح، يصعب علي السيطرة على مشاعري قليلاً بعد الجلسة، لكن ليس أمام المريض طبعاً.

— حسناً يا داليا، أوصيكِ للمرة الثانية هنا ليس مكاناً لمشاعرنا الشخصية أنت هنا لتفهمي المرض وتحاولين علاجه، وليس لتتأثري وتتفاعلي مع الأمور من وجهة نظر شخصية، كلنا في بداية الأمر هكذا، لكنك ستعتادين وتكتسبين خبرة مع الأيام، كل التوفيق لك.

— شكراً جزيلاً لك.

صعدت داليا الدرجات إلى الأعلى، فتحت الباب ودلفت بهدوء، كعادتها تفتح الستائر كلياً، تفسح أكبر مساحة لتدلف الشمس لأنحاء الغرفة الباردة وتدفعها، وضعت حقيبتها جانباً واتجهت للنافذة تتأمل السماء، وبعض النسمات تلامس وجهها بلطف، فكرت في كلام الطيبية سماح، هل حقاً ستكتسب الخبرة؟! وهل الخبرة هذه معناها أنها لن تتأثر بمشاكل المرضى وآلامهم؟ هي ترى نفسها أبعد ما يكون عن ذلك، ربما ستتعلم إخفاء مشاعرها جيداً وليس إيقافها بتاتاً.

بعدها بقليل أخبرتها السكرتيرة بأن عليّ قد وصل لتوه، وسمحت له بالدخول.

(قبل يوم).

خرجوا من مركز الشرطة وعلى وجه عمر -والد علي- ابتسامة المنتصر، وقفوا قليلاً، استدار عمر بوقار للخلف يخبر سائقه أن ينصرف لأنه سيتولى مهمة القيادة وحده، ثم نظر باستخفاف نحو علي قائلاً:

— تظن نفسك ستهرب مني؟! مؤسفٌ بأنك لا تستطيع.
ترجل لداخل السيارة وأشار إليه بالحقاق به، تنهّد علي ومرر أصابعه
على خصلات شعره معيداً إياها للخلف، وتقدم نحو سيارة والده
الفاخرة شديدة السواد، الأغنياء هكذا يختارون أجود الأشياء
ولكن بلونٍ أسود، يعبرون بشكل أو بآخر بأن الأسود هو اللون
الطاغي في حياتهم على كل تلك الألوان.
أردف علي:

— ألم تجد طريقة أكثر رقياً لرؤيتي؟
— كان هذا خيارى الأخير، بعد فشل كل الطرق، كيف حالك يا
علي؟

— لا يهم، وأنتَ؟
— أنا بخير على الدوام معكم أو بدونكم، أين آسيا؟ إنها لا تجيب على
اتصالاتي وجميع حساباتها مغلقة، من الأفضل لكما العودة للمزرعة!
— ونحن لا نريد الأفضل، دعنا وشأننا من فضلك، وقل لي ماذا
تريد بشكل مباشر.

— تأدب في الحديث مع والدك فهمت؟ عليكما أن تغلقا أفواهكما أنت
ووالدتك وتعودا، لن ندع الناس يتحدث في الأمر وتنتبه إليه.

يا أبتِ تحدثنا في هذا الأمر طويلاً، سنعود عندما تعود أنت السيد
عمر الذي نعرفه، أنت الآن تكاد تذهب بمستقبلنا نحو الجحيم.
نصحو على صراخك، ولا نغفو قبل أن تكسر الدنيا فوق رؤوسنا
حتى وصل بك الأمر إلى الضرب، أبي الحياة باتت في الشارع
أرحم من الحياة معك، لو كنت فعلاً تهتم بكلام الناس عنا،
لأصلحت نفسك وابتعدت عن هؤلاء الناس السيئين.
ضحك عمر ملاً فمه مردفاً:

— هذا ما ينقصني، ابني ينصب نفسه حكيماً عليّ وينصحيني، كفى
هراء، معكم ثلاثة أيام حتى تفكرو جيداً وتعودا، وإلا فلن يحدث ما
يسركم.

خلع نظارته وألقى بنظرة حادة إلى ولده وتابع:
— أين تسكان الآن؟

— فضلك سابق، سأعود بنفسني.

فتح الباب وهم بالنزول، فناداه والده يعيد عليه ذات التهديدات.

كانت إيناس في ذلك اليوم حبيسة البيت، ولم تذهب للعيادة
بسبب المرض، لا قدرة لها حتى على الكلام، تحاملت على نفسها

ونَهَضت للذهاب للغرفة الأخرى حيث أمها وأخوها الصغير، إنها تكره الوحدة، ترفض أن تعيشها ولو قليلاً، تحب الاستئناس بأي شيء وأي شخص، كان لها من اسمها نصيب فهي إيناس وتحب الأُنس كثيراً، هي حزينة قليلاً لأنها للآن لم تلتقي بصحبة حقيقية، وبأناس يستحقون عطاءها وحبها وجنونها، هي حزينة لأنها دائماً تندفع بملء قلبها نحو الأشياء التي تخيبها لاحقاً ولا تدوم معها طويلاً، تتمنى لو تلتقي قريباً بمن يخرش اسمه على جدار قلبها ويعلن عن بداية قصة حب صادق، هاجس الوحدة لا يتركها وشأنها في أي حال، كانت تعاني من التفكير الشديد، والآن في حالة المرض هذه يزداد الوضع سوءاً كثيراً، فهي إنسانة حيوية حماسية، عالية الصوت والطاقة، تصرخ وتضحك وتثرثر كثيراً، فيها شيء من بقايا الطفولة حتى الآن لا يفارقها، هي تفضل أن تكون إنسانة صاخبة كي لا تستمع لأفكارها الموحشة والمشوشة، التي لا تلبث تسمع لها حتى يُخالجها الشعور بالضيق والضياع، وهذا المرض الآن يُفرض عليها السكون فرضاً، فيا رحمة الله تغشي بقلبها الصغير.

دلفت للغرفة الأخرى فوجدت أمها تقطع بعض الخضار لطعام الغداء، وسالم الصغير يشاهد برامج الأطفال، ألقت التحية واستلقت

على الأريكة تشاركه المشاهدة، قائلة في نفسها: "ما ضرنا لو عدنا أطفالاً من جديد"، كانت تستعيد جمال ذكريات الطفولة، وتحن إليها، ومن منا لا يحن لوقت كان كل همه فيه اللعب والضحك، وكانت أكبر مخاوفه هو أن ينطفئ النور فجأة، وحله الوحيد أن يصبح كبيراً وما إن يكبر قليلاً حتى يتمنى العودة للطفولة وعيشها بكل معانيها، فأكثرنا كبرنا بدون شعورٍ منا، كبرنا على عجل لأن الظروف لم تمنحنا فرصة التمهّل، غالباً يحدث ذلك للأخ الأكبر في العائلة، فدائماً الأخ الأكبر بمثابة أب حتى وهو صغير، والأخت الكبرى تكون كالأم وهي في سنٍ صغيرة، فتنطوي فيهم بعض الطفولة باكراً قبل أن تأخذ كامل حقها، كانت تشاهد ولكنها لا تشاهد، كانت حاضرة ولكنها في عالم آخر، أيقظها من ذلك اتصال داليا التي أخبرتها بأنها ستأتي لزيارتها مساء هذا اليوم، وذلك خفف عليها لأن انتهاء هذا اليوم سيكون أهون لو كانت داليا هنا.

يا من بذكراه يَطِيبُ خاطري، أتركُ تذكُرني وتُطِيبُ خاطري؟!

— دانية قصاص.

عند الغروب عادت شفق للمنزل ودلفت لغرفتها تُبدِّل ملابسها،
بينما بدور كانت في غرفتها تحاول إنجاز ما عليها من واجبات
والتزامات دراسية ليوم الأحد حتى تلهو في المزرعة وقد انتهت من
مذاكرتها، تجاهلت دقات الباب المتتالية على غرفتها، فدفقت شفق
قائلة:

— لماذا لا تجيبين؟ على الأقل قولي تفضلي.

— شفق لا تنقصيني الآن أرجوك، تبقى القليل دعيني أنتهي قبل مجيئ مازن واخرجي.

تنفست شفق الصعداء وخرجت من الغرفة، الضغط يجعل الإنسان فظاً في بعض الأحيان، لمحت شاشة هاتفها تُضيء، اقتربت منه فوجدت أنه مازن، فتحت الخط:

— السلام عليكم، كيف حالك؟

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، بخير وأنت؟ متى ستأتي؟

— خرجتُ من الصيدلية الآن، ربع ساعة وأكون عندهم، هل تحتاجين شيء ما؟

— لا، سلامتك، نحن بانتظارك إذن.

— شفق من فضلك ادخلي غرفتي، هناك كتاب بعنوان "أوراق الورد" اجليبه معك وهناك دفتر فوقه بلون أخضر فاتح متوسط الحجم أحضره أيضاً.

— حاضر يا مازن، أحتاج شيئاً آخر؟

— لا أغراضي أخذتها أُمي معهم، كنت سأحضر هذه الأشياء معي لكن اختصاراً للوقت طلبت ذلك منك.

— حسناً، إلى اللقاء.

وأغلقت الخط، ثم اتجهت للغرفة خت بضع خطوات داخلها، يا الله إنها لم تدخلها منذ وقت طويل جداً، لديه الآن الكثير من الأشياء التي لا تعرفها، بينما سابقاً كانت تعرف كل صغيرة وكبيرة في هذه الغرفة، انطلقت نحو رف الكتب ففوجئت بأنه يمتلك الكثير من الكتب الجديدة، خالجه شعور غريب مزع يشبه مشاعر أيام قديمة، عندما غادرتها بعض الطفولة وجبرت بالابتعاد عن مازن ووضع بعض الحدود بينها وبينه، حينها لم تستوعب بعد بأنها قد كبرت، وما قيمة كل تلك التآنيبات والنصائح، كانت تعتبرها قسوة شديدة، هي الآن فهمت كل ذلك، وعرفت بأن ذلك هو الصواب، ولكن أحياناً يصعب علينا أن نحسب حساب كلماتنا مع من كنا نتحدث معهم بتلقائية وكيفما اتفق وبأي حديث كان، يصعب علينا بناء حواجز مع من كنا نبدو معهم كشخص واحد، تغيرت تلك المشاعر كثيراً جداً، شفق الآن بعد خمس سنوات لا تشبه شفق القديمة بتاتاً، لكن ذلك الشعور عاودها لدخولها غرفته ثانية وتذكر أيام لعبها وضحكها في أرجاء المكان، ولرؤية الكثير من الأشياء الجديدة التي لم تكن هنا، جلبت ما طلبه

منها، جاهدت نفسها وفضولها كي لا تفتح الدفتر، وسارعت
بوضعهم في حقيبتها مع أغراضها.
بعد قليل وصل مازن ونزلتا إليه، رحب بهما ثم انطلقوا، صاحت
بدور:

— أخيبيراً.

ضحك مازن منها قائلاً:

— افتحوا النوافذ، لتتلقوا هواء الريف بعد قليل فإنه يرد الروح،
صحيح هل تريدان شيئاً ما؟

— أريد مثلجات، سأودع الصيف بكل طاقتي.

— وأنتِ يا شفق؟

— لا فرق، مثلجات، قهوة، كعك مملح، كله لذيذ.

— تبدين مستعدة لأكل الأخضر واليابس.

قال مماًزحاً، فبادلته المزح قائلة:

— مازن، أنزلي سأكود للبيت.

ضحكت ثم تابعت:

— أظن بأنني سأقول ذلك؟، لا أبداً، ونعم سأكل كل شيء، هذا
الجو يفتح شهيتي.

— أنت تفرحين لإقبال الشتاء وأنا أقيم عزاءً لرحيل الصيف، لكن
لا بأس بدور شهيتها مفتوحة على الدوام.
— أسعد الله قلبكما، حسناً إذاً مثلجات ثم قهوة باردة اتفقنا؟!.

في المساء اجتمعت الفتيات في الغرفة، داليا تقشّر لهن البرتقال،
وحنين تُسرح شعر إيناس التي تتدلل عليهن لكونها مريضة، تنهدت
حنين قائلة:

— أرجو أن يبقى معاذ بقرب أميرة، لأنها لو استيقظت ولم تجد أحداً
لجانها سيصل صياحها إلى المريح.
— لماذا لم تحضرها معك يا حنين؟

— موعد المدرسة مبكراً يا داليا، لا تزال في الصف الأول ولكنها
تتعبني كثيراً، هناك مشكلة في عينيها على ما يبدو، تخبرني دائماً بأنها
لا ترَ جيداً.
أردفت إيناس:

— لا تقلقي، البداية صعبة لكنها ستعتاد، سأرى أحد أطباء المشفى
وآخذ لك موعداً لأجلها يا حنين.

— صحيح لم أخبركن، تخيلن أن والداه هو سبب كل هذا!
قالت داليا فجأة، فتساءلت حنين بعد أن وضعت البكلة على شعر
إيناس المجدل:

— عمّ تتحدثين، من هذا وماذا هناك؟!

تبادلت كل من إيناس وداليا نظرات ذات معنى، أوضحت تسرع
داليا بالكلام، صمتت قليلاً متصنعة الانشغال بتقطيع البرتقالات، ثم
شعرت أنه لا مفر، ثم ما المشكلة لو علمت حنين؟ هي أيضاً
تشاركهما كل شيء، تنفست بعمق وناولت طبق يرتقال لكل
واحدة، ثم أخبرت حنين عن علي وعن معالجتها إياه، ثم أكملت:

— وبعد أن سحبت الشرطة فجأة من عندي ممّا أثار قلقي أنا والطبيبة
سمّاح، ثم كان كل ما في الأمر هو خلافات عائلية— كبيرة على ما
يبدو— ولم يستطع والده القبض عليه لا بالعنف ولا باللفظ،
فعندما عثرت عليه إيناس في وسط الطريق كان رجال والده
يطاردونه ثم تعرض لحادث سيارة فتركه الرجال وهربوا، وهذه

المرّة حاول الوصول إليه عن طريق الشرطة حالته تبدو سيئة مؤخراً، أنا خائفة عليه.

تناولت حنين قطعة برتقال قائلة:

—عندي لك نصيحة وأرجو تقبلها، داليا لا تنغمسي بكلك وبكل مشاعرك في طريق لا تعرفين نهايته، علي مجرد مريض عندك ونجاحك في علاجه سيؤهلك لكسب درجات مشروع التخرج، لذلك كوني عقلانية وتحكمي في مشاعرك، ثم ما نوع تلك المشاعر يا داليا؟

نجلت داليا ثم أطرقت قليلاً تفكر، هي فعلاً لا تملك إجابة واضحة أو منطقية، تشعر نحوه بمشاعر شتى لا تفهم فخواها، الانجذاب أم إعجاب، ربما حزن لحاله وربما... حب! لكنها كما قالت حنين لا تعرف ما نهاية هذا الطريق وإلى أين سيؤدي، وبالمقابل لا تريد أن تتوقف.

شعرت برغبة عارمة بالبكاء لكنها كتمتها، مغيرة مجرى الحديث، حاولت حنين أن تداري الأمر رغم انزعاجها من تجاهل داليا لكلامها تماماً، بينما كانت تعرف أنهما لو تناقشتا معاً ستترتب أفكار

داليا وتحزم أمورهما، ولكنها على ما يبدو مصرة على ما تفعل
ومسرورة بذلك!.

كان مازن جالساً وحده تحت شجرة الليمون، يُنصت لهدوء الليل
وحفيف الأشجار يطالع القمر بعينين ملؤهما اليقين بأن خالق الكون
العظيم سيجبر خاطره، كانت السكينة تملأ الأجواء فتسربت إلى
قلبه أيضاً، شعر بأنه يطير في جنبات السماء لفرط تأمله وغرقه في
تفاصيلها، ومن منا لا يحب السماء، ولا يرى بأنها تخفف عنه
وتبدد ضيقه بسعتها اللامتناهية؟!

ناجى الله في الكثير من الدعوات، ثم قام ليتمشى قليلاً شعر
بالحاجة إلى أنس إلى شخص يشاركه هذه اللحظة الجميلة بكل
مشاعرها السامية، فتوقف مستنداً إلى أحد الأشجار وأخرج هاتفه
ودلف لمذكرته كاتباً الآتي:

"في المستقبل الذي لا أدري أهو قريب أم بعيد، وعندما نتمشى معاً
تحت السماء الصافية في هدوء الليل ونسماته العليلة، سنتأمل
النجمات معاً وسأخبرك بأنك نجمتي التي رزقني الله بها من أعالي

السماء الرحبة لتستقر بعمق قلبي، ولتنير فضاءات حياتي وتؤنسها،
لن نُفسد جمال اللحظة بالاستماع لأغانٍ تافهة متكررة لنشعر بأننا نعبّر
عن طريقها عما نشعر به، هذه طريقة مستهلكة جداً، لأننا نحن
سنعيش اللحظة سندع القمر ونجومه والليل وهدوئه يحكي عن كل
ذلك بطريقة راقية تسمو بنا في مدارج الحب، ستغمرنا السكينة
والسكون الذي يخلو من كل شيء إلا من حفيف الأشجار
وهمسات النسمات التي ستداعب وجوهنا بلطف، ومن صوتك
وأنت تتحدثين بتدفق عما يعتمل في فؤادك، كما لو أنك تكتبين وكما لو
أني أوراقك البيضاء التي ستفهمك وكأنها تقرأك وأنت تكتبين لها،
ستطبعُ كلماتك على جدار قلبي، ستكون يومها أرجلنا على الأرض
وأرواحنا فوق الغيوم!
إليك.

كم يمتنى لو أنها تفهمه، وتقرأه بذكاء كما تقرأ كتبها وموادها، أو لتقرأ
يوماً ما، ما يكتبه لها، هو يشعر بالفضول نحو كل شيء يخصها، وهي
حتى عن حاله لا تسأله إلا قليلاً.

مع أن الأمر قد تكرر كثيراً،
لكنه يمر ثقيلًا دائماً وكأنها المرة الأولى!

_دانية قصاص

في الصباح الباكر، كان الطقس مُشمساً وهادئاً جداً إلا من تغريد
العصافير وصياح الديكة، كانت عائلة أبو مازن تجلس في حديقة
المنزل الكبيرة المحاطة بأشجار الليمون، أمل تجلس على أرجوحتها
وتدندن، وبدور تجلس قرب شفق تحكي لها عن حلمها الذي رآته
ليلة أمس، ابتسام وميساء تضحكان معاً وهما تفكران في طبخة

الغداء بينما مازن ووالده يجلسان على السطح في الأعلى، وكل واحد معه فنجان من القهوة، صاحت بدور:

— أمي ما معنى أن شعري قد طال كثيراً في المنام؟

— لا أعرف يا بنيتي، ادخلي متصفح الانترنت وابحثي.

— أممم، لا أريد، إن رأيت في نومي حروف محشي فإن العم جوجل يفسره على أنه عريس، أشعر لوهلة أني أعيش على حسابه الشخصي ويود التخلص مني.

فضحك الجميع، بعدها رن هاتف السيدة ابتسام فوجئت لرؤية اسم المتصل، رفعت حاجباها وفتحت الخط بعد أن تبادلت نظرة استغراب مع ميساء:

— صباح الأنوار سيدة عبير، جميعنا بخير، كيف حالك أنت؟

وضعت شفق الفنجان على الطاولة وأعادت خصلاتها وراء أذنها مرتقبة، أصابها بعض التوتر عند سماع اسم عبير، تابعت ابتسام:

— سأكلم ميساء وأرد لك خبر بالموعد.

صمتت قليلاً ثم تابعت:

— حسناً رافقتك السلامة.

وأغلقت الخط قائلة:

—إن السيدة عبير تطلب موعد لزيارتنا اليوم، فأخبرتها بأننا لسنا في البيت، ما رأيك يا ميساء؟

—يا أهلاً وسهلاً، ليأتوا على الغداء فنأكل ونسهر معاً، أعطهم موعد عند الخامسة، إكرام الضيف واجب على رغم ما حدث بيننا في آخر لقاء، ولكن لننس ما حصل.

أردفت بدور بينها وبين نفسها: "لا نستطيع أن نرتاح بأي إجازة"، وبجانبا شفق تتساءل هل فعلاً غيّرت رأيها وستحبها وتبدأ صفحة جديدة؟! ودعت بأن يلطف الله بقلبها وقلب براء ويختار لهما الخير. صعدت ميساء لتتحدث إلى زوجها بهذا الأمر، أردف مازن عند رؤيتها:

—يا أهلاً بريحانة الدار، تفضلي شاركيينا الجلسة يا أمي. أخبرتهما بمجيئ عبير وابنها، تغير لون مازن لسماعه ذلك وراح يفكر "ألا يمل هذا البراء؟! أخبرته أنها لا تريد الارتباط الآن، وها هو يفرض نفسه، ويطلب موعد، رحماك يا رباه"

نزل مازن للبيت مكدر الخاطر، صادف شفق وهو في طريقه لغرفة الجلوس، سألهما:

— هل تحدث إليك؟

ردت سؤاله بسؤال وهي تبسم بنظرة استفهام:

— من؟

— براء ومن غيره!

أجابت بـ لا فأكل طريقه بنزق دون أن يتفوه بكلمة، استوقفته
مردفة:

— مازن انتظر، ألا تريد أخذ أغراضك التي جلبتها لك البارحة.

— ليس الآن، شكراً لك.

— عند الغروب كان الجميع غارقاً بالأعمال في المطبخ، وأبا مازن يوقد
النيران في منقل الشواء، دلف مازن للمطبخ سائلاً إياهم إن كانوا
يحتاجون شيئاً ما عند عودته، فقد تكلم مع براء للتو، دعت له أمه
بالعافية والسلامة.

بعد ساعة كانت كل الأشياء جاهزة، وقد وصل الضيوف، كانت
شفق في الغرفة تكاد تنتهي من ارتداء ملابسها، كانت عبارة عن
فستان زيتي اللون طويل وفضفاض فوقه جاكيت قصير من الجينز
الغامق، مع حجاب بلون سكري مزركش بوريقات خضراء.

كانت النساء تجلس في غرفة الجلوس والرجال في حديقة المنزل، دلفت شفق للغرفة وراحت ترحب بالسيدة عير بلطف، بادلتها الأخرى الترحاب وقدمت لها الأخرى باقة من الورود الجورية بيضاء اللون، فواحة الأريج، شكرتها شفق بامتنان.

بدأت كل من شفق وبدور تجلب الأطباق للطاولة، ومازن كذلك كان يتردد لنقل الأطباق، حينما دلف وكانت شفق هناك، شعر بأن الزمن قد توقف لوهلة، وشعر بألم أيسر صدره، كانت تبدو كفراشة تتحرك بخفة هنا وهناك، وبالمقابل كان هو واقفاً يمتنى لو أن هذه الفراشة التي تخطف قلبه، تكون له في يوم من الأيام، وتحلق تحت جناحه فحسب ليشعر أن الدنيا بأكملها حديقة أزهار، انتبهت لشروده ابتسمت ناظرة إليه تحرك كفها أمامه:

— هيي مازن، مالك؟ نائم!

قطعت حبل أفكاره وأحلامه بصوتها، هو يعلم تماماً أنه هنا منذ قليل فحسب ومع ذلك نجل من نفسه كثيراً، واستغفر الله في داخله، ثم اعتذر يخبر إياها بأنه كان شاردًا في موضوع ما، ناولته صينية تحوي الصحون الفارغة والملاعق قائلة:

— تفضل، ضعها هناك وعد تبقى طبق واحد فحسب.

بعد قليل، كانت شفق تجلس قرب بدور التي ترتدي بلوزة بنفس
اللون الزيتي، طويلة الأكمام وعليها زهور بيضاء، وتحتها بنطال جينز،
ترفع شعرها للأعلى، كانت أم براء تنظر لكليهما معاً مقارنةً بينهما في
نفسها، قالت بادية بتناول الطعام:

— كلي جيداً يا شفق، ستتحولين لهيكل عظمي عما قريب، تكادين
تختفين بين ملابسك، ستليق بك أكثر لو سمنتي قليلاً.

توقفت الملعقة التي كانت بطريقها لقم شفق، وعادت للطبق، هكذا
هي دائماً لا تستريح حتى ترمي بأشواك كلماتها نحو شفق وترى أثرها
السلي عليها، هتفت ميساء:

— يا بنات أنسيتن الخبز؟

قامت الاثنتان سريعاً نحو المطبخ، أردفت بدور سريعاً، وهي تمد
يديها نحو شفق بالخبز:

— خذيه لهم وأنا سأخذ البقية للداخل.

امتعضت شفق ومضت تحمله إليهم، أردفت بنجل عند وصولها:

— مساء الخير، ها هو الخبز، هل تحتاجون شيئاً؟

صمت مازن منزجاً من حضورها، فقد شعر بأنها تبدو جميلة جداً اليوم، ولا يريد أن يراها براء وهي كذلك، لكنه يثق بأنه مهما كان الشخص جميلاً في عيون الناس لن يكون بالجمال الذي تراه فيه العيون التي تحبه.

شكرها العم سعد، وأردف براء باسماً لرؤيتها:

— سلمت يداك، وطاب مساءك.

بادلتها الابتسامة بحياء وعادت للداخل، هي لا تدري ماذا تفعل، هو يحاول التمسك بها بأي طريقة، وأمه تحاول كسر خاطرها بأي طريقة أيضاً، تنهدت وعادت للداخل.

— جزاكم الله خيراً وسلمت أيديكم، أخبروني ما الذي أعدته شفق من هذه الأطباق؟

قالت عبير وهي تتناول الطعام، ردت بدور:

— الحساء والمقليات أعددناها أنا وهي معاً.

— لا تعرفين الطبخ يا شفق؟

— بلى، ولكن ليس كثيراً، لا زلت أتعلم.

ردت شفق فتابعت ميساء:

—الدراسة والجامعة تأخذ معظم وقت الفتيات، ثم إن الطبخ سهل وهما ماهرتان، ستتعلمان سريعاً حينما يحتاج الأمر ذلك.
تهدت عبير:

—أنا أسأل الفتاة، لماذا الجميع يرد عنها إلهاء، أكاد أخالها خرساء وصماء!، هداك الله يا بني هذا الاختيار.
نظرت شفق بطرف عينيها إليها، ابتعلت غصتها بمرارة ثم نهضت متجاهلة كل شيء، دلفت للمطبخ تغسل يديها بشرود، تبتعها بدور ولكنها توقفت مصدومة عند باب المطبخ، كانت شفق تحديق في الاشياء والماء ينهمر من الصنوبر بغزارة، تحمل السكين في يدها وتحركها ببطء نحو اليد الأخرى، وفجأة أمسكت برأسها مغمضة عينيها وانزلت السكين واقعة في المجلى، مما جعلها تنتبه إليها، غسلت وجهها بالماء مطوَّلاً وأغلقت الصنوبر، راحت تفكر: "يا الله، ما الذي كنت سأفعله بنفسى قبل قليل!" ثم دخلت بدور مواسية إياها وناصحتها بأن تضع حداً لما يحدث.

في مساء ذلك اليوم وبعد رحيل الضيوف، خلد كل من سعد وميساء للنوم، أما ابتسام فكانت جالسة تحيك وشاحاً صوفياً لأمل النائمة على رجلها، قالت بدور وهي تنظر لكل من مازن وشفق:

— تعاليا نلعب لعبة الصراحة في الحديقة ما رأيكما؟

كانت شفق تصفح في هاتفها، فأغلقتة وأومأت موافقة، وكذلك مازن الذي كان يقرأ في كتابه الذي استعاده من شفق قبل قليل، فوضعه جانباً ونهض ثلاثتهم للخارج، تحلقوا حول الطاولة وابتدأت بدور سائلة شفق:

— ما الذي يجعلك لا ترفضين هذه الخطوبة تماماً يا شفق؟
تهدت الأخرى مجيبة:

— أشعر بشيء صادق اتجاه براء وأشعر بأنه يبادلي ذلك، قال لي كلمتان ذات يوم لا تزالان في بالي للآن: "أنا لست مستعداً لأخسر" إنه يحاول بجهد أن يصلح ما تفسده والدته، أريد إعطائه فرصة.

أردف مازن:

— إنها تهدم ثقتك بنفسك ولا تتوانى عن إزعاجك، ثم لا تنسي بأنك ستعيشين معها بعد الزواج، فكري جيداً يا ابنة العم.

هزت برأسها ثم جاء دورها لتسأل مازن، ابتسمت قائلة:
_مازن صراحة أم تحدي؟
_مع أننا دائماً نلعب صراحة فقط دون التحديات لأنها غالباً مزعجة،
حسناً يبدو أن لديك تحدٍ ما صحيح؟ حسناً تحدي كما تشائين.
اتسعت ابتسامتها قائلة:
_دعني اقرأ في دفترك الصغير الجميل، أكاد أموت لأعرف ما به!
تفاجأ مازن كثيراً، ضحك قائلاً:
_إنها خصوصيات، لا أستطيع.
_وتخسر التحدي؟
قالتا بلهجة استنكارية، فأوماً إيجابياً، تابعت:
_اختر أنت الصفحة وأنا اقرأها، أريد معرفة ما يحويه وإلا
فسأمت، لن أرى كل شيء أطمئن.
ضحك مجدداً ونهض ليحضر الدفتر.

"لا تفعلُ المُسَكَّاتُ
ما تفعله كلمةٌ حنونةٌ أثناء التعب
هونُوا على بعضكم الحياة"

— لقائلها.

بعد عدة أيام:

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا خالة.
— وعليك من الله السلام يا بني، تفضل، كيف حالك وكيف حال
والدتك؟

—إنها بخير، وتبلغك سلامها، تحدثت إلى خالي بالأمر أخيراً، وسيتفاهم مع أبي قريباً.

جلبت الخالة أم خالد بعض البرتقال وشرعت في تقشيرها، كانت تحب إكرام الضيوف بأي طريقة مهما كانت، رغم أنها وحيدة وحاجياتها تكاد تكفيها، لكنها حنونة وكأنها أم للجميع، نظر علي إليها بعطف شعر بالحنين لوالدته، أخذ عنها وبدأ يقشر بنفسه، فراحت تدعوه بالخير والتوفيق.

سألته عن أحواله وصحته، فناولها قطعة برتقال بعينين مبتسمتين وأجاب:

—الحمد لله فقد تحسنت كثيراً عما سبق، ووجدت عملاً.

تناول قطعة برتقال وتابع:

—أتعرفين مطعم اللقمة الطيبة؟ هناك عمٌ طيبٌ رحّب بي وبدأت العمل عنده كمحاسب، سأجلب لك مساءً طعاماً من عنده، أخبريني ماذا تحبين يا أمي؟

كان يعلم مدى حبها لكلمة أمي، فبات يكررها دائماً، كان بحاجة لنطق تلك الكلمة وكانت هي بحاجة لأن تطرق مسامعها كلمة كهذه، كانا يتقاسمان الوحدة معاً فتخف وطأتها على كلاهما،

شعرت أم خالد بتغير تصرفات علي قليلاً وازديادها لينا عما سبق، كان ذلك بسبب العلاج، ولأن داليا قد بذلت جهداً كبيراً لتحاول إخراجها من تلك الحالة، مما أصابه بالحيرة من كل هذا العطاء واللفظ معه، وقد تسربت تصرفاتها الحنونة نحوه ليبدأ هو أيضاً بالتصرف مثلها، قد تصيبنا القسوة أحياناً لأننا تربيـنا عليها ولم نرى سواها في حياتنا، ولكننا ما إن نعطى المحبة حتى نبدأ بمنحها نحن أحياناً على نفس النحو الذي تلقيناها به.

نحن في أيامنا السيئة نحتاج من يدعمنا، من يشعرنا بأننا جميلين رغم البشاعة التي نرى فيها أنفسنا والعالم، نحتاج من يصفق على محاولتنا الفاشلة قبل الناجحة؛ لنهض من جديد.

— صباح الخير، كيف حالك؟

— صباح الخير، مازن، بخير الحمد لله، متوترة قليلاً سيأتي براء اليوم لجلسة الطيبة.

— لماذا لم تخبريني؟

— أخبرت عمي وأخذت موافقته.

قالتها بضيق وكأنها تقول له لا داعي لإخبارك، أردف قائلاً:

- حسناً، حظاً موفقاً، متى آتي لأصحبك للبيت؟
- لدي محاضرات ثم سأذهب مع ليان لعيادة طبيبة الأنسان، ومن ثم إلى الطيبة سماح، وهناك سألتقي ببراء ليحضر الجلسة ويتحدث للطبيبة، آه جدولي مزدحم اليوم.
- إذن سآتي قرابة الساعة؟
- نعم.
- أوما لها وتابع:
- انتبهي لطعامك وشرابك، لا تنسي نفسك وسط انشغالات اليوم.
- عم الصمت برهة، ثم أردفت شفق:
- مازن.
- استدار ناظراً إليها، فقد كان نداؤها بنبرة الرجاء، تابعت:
- أنا خائفة، لا أدري ما السبب!
- أجب بلطف:
- اكثري من التسبيح واستعيني بالله، سيكون كل شيء على ما يرام
- لا تخافي يا ابنة العم.
- هل أخبرك شيئاً؟

أجابها بنعم، كادت تتحدث ثم صمتت قليلاً تفكر هل تكمل كلامها؟
تفاجأ لصمتها فسألها:

— ما بك يا شفق؟ أكلي.

حنت رأسها للأسفل متنهدة بأسى، كيف تخبره بأنها تحتاجه بجانبها
اليوم، يا الله لماذا يصعب علينا البوح باحتياجنا للآخرين حينما
نكبر؟ (أحتاجك) هي كلمة واحدة فقط ولكنها صعبة النطق، كل
ما في الأمر أنها متوترة وخائفة ووجود مازن يشعرها ببعض
الآمان، مشكلتها أنها تمر بفترة صعبة، فإنها لا تحتاج مازن بعينه بل
تحتاج رجلاً بجانبها في مواقف مثل هذه، تحتاج رجلاً يشد أزرها
ويمنحها الطمأنينة والثقة لمجرد قربها منها، عمها لديه مشاغل كثيرة،
وتعرف بأنها تُعَبُّ مازن معها في كل أمرها، كتبت دمعاتها
بصعوبة، الألم في داخلها لا يُطاق!

تشعر بالوهن والتعب، تمنى لو تتوقف حياتها فقط لوهلة من الزمن
حتى تسترد أنفاسها لتتابع، لكن الحياة لا تتوقف، تمضي مسرعةً
وما علينا سوى تجاوز كل شيء حتى تعبنا ومشاعرنا.

شعر مازن بإنها تريد قول شيء يصعب عليها التفوه به، لكن مشكلته أنه يعرفها تماماً، إذا قررت ألا تقول شيئاً فهما أصر عليها سيفوز عنادها بالتأكيد مهما كانت حالتها، لكنه سألها رغم ذلك: _ ما بك شفق؟ ها قد وصلنا الجامعة ولكن قبل نزولك ستخبريني ماذا هناك؟

_ لا شيء يا مازن، كل ما هنالك أنني أفكر أكثر من اللازم، شكراً لك على كل شيء..
قالتها أثناء نزولها ثم مضت بخطى سريعة.

دلفت لعيادتها تحمل أقلاماً ملونة وعليها ريش من الأعلى مع قصص تلوين، كانت بسمتها تملأ وجهها، تحب التعامل مع الأطفال، تأسرها براءة الصغار وضحكاتهم حتى رغم الألم الذي يشعرونه، فرحت لتردد نسيم تلك الطفلة الجميلة لعيادتها، رغم ملابسها التي توحى بأن حالتها سيئة نوعاً ما، ولكن ذلك لا يهمها، هي إنسانة تلفتها الروح لا القشور، هكذا إيناس منذ صغرها، كانت تعطي طعامها لأي طفلٍ جائعٍ في المدرسة على أن تأكله هي بنفسها، نظرت إلى انعكاسها في المرأة، عدلت من وضع حجابها الوردي الذي يحيط بوجهها الحنطي، ثم ارتدت مريولها الأبيض فوق عباءتها بنية

اللون، وأرسلت قبلة لنفسها في المرأة، إنها سعيدة دون سبب واضح، ربما فقط لمجيء الأطفال اليوم، لأن ذلك يجعلها فتاة خفيفة جداً على عكس الثقل الذي تشعر به أحياناً في أوقات العمل. براءة الصغار وضحكاتهم حتى رغم الألم الذي يشعرونه، فرحت لتردد نسيم تلك الطفلة الجميلة لعيادتها، رغم ملابسها التي توحى بأن حالتها سيئة نوعاً ما، ولكن ذلك لا يهمها، هي إنسانة تلفتها الروح لا القشور، هكذا إيناس منذ صغرها، كانت تعطي طعامها لأي طفلٍ جائعٍ في المدرسة على أن تأكله هي بنفسها، نظرت إلى انعكاسها في المرأة، عدلت من وضع حجابها الوردي الذي يحيط بوجهها الأبيض، ثم ارتدت مريولها الأبيض فوق عباءتها بنية اللون، وأرسلت قبلة لنفسها في المرأة، إنها سعيدة دون سبب واضح، ربما فقط لمجيء الأطفال اليوم، لأن ذلك يجعلها فتاة خفيفة جداً على عكس الثقل الذي تشعر به أحياناً في أوقات العمل مع الكبار.

كانت شفق وليان تتمشيان وأيديهما متشابكة، أردفت ليان:
 — أتمنى أن أكل برميلٌ من الشوكولاتة دون أن أتألم هكذا، أتصدقين
 بأنني فقدت الكثير من الوزن بسبب هذا.
 — هوني عليك يا رفيقة، ستتعافين قريباً.

— آمل ذلك، وأنت أيضاً إن شاء الله، أتمنى لو أبقى معك عند
الطبيبة ولكن سأوصلك وأعود للمنزل، أُمي متعبة هذه الأيام.
— لا بأس يا ليان، أتعلمين؟ أتمنى لو أنني على الأقل أعرف ما بي،
أتلس موضع ألي بيدي وأخذ حبة دواء فأرتاح بعد أخذ غفوة
قصيرة، هذا الألم الداخلي غير المفهوم لا يطاق يا رفيقة.
— شفق يا غاليتي، كلها ابتلاءات وآلام في النهاية، هذا الألم رحمة
وتكفير ذنوب، وبالتأكيد له حكمة وتوقيت ثم سينتهي وتشفين،
كلما أشد الظلام حلكة فذلك يعني أن انقشاعه قد اقترب، أليس
الصبح بقريب؟

شدت شفق على يديها توماً بالإيجاب.
دخلتا المستشفى معاً واتجهتا نحو عيادة إيناس، دلفت ليان للداخل،
وجلست شفق في غرفة الانتظار، وأخرجت هاتفها لتكمل قراءة
الرواية الالكترونية ليتما تنتهي صديقتها، ألقت إحداهن التحية
عليها، رفعت عينيها إليها، لترى شابة متوسطة الطول نحيلة القوام،
ترتدي عباءة سوداء وحجاباً أبيضاً، وتملك عنيان عسلتان
مبتسمتان، تمسك بيد طفلة صغيرة لطيفة الملامح تطالع شفق بعينين

فضوليتين بلون عيني والداتها على ما يبدو، ردت شفق التحية
وعدلت من جلستها لتجلسا لجانبها، سألت الطفلة:
_ ما اسمك يا جميلة؟
_ أميرة.

مسحت على رأسها قائلة:
_ إنك أميرة فعلاً، ثم نظرت للشابة قائلة:
_ حفظها الله لك، والدتها؟

فابتسمت مجيبة:
_ نعم أمها، سلهك الله، الطيبة في الداخل أم لم تأتي بعد؟
_ بلى في الداخل ولديها مريضة الآن.
_ حسناً، شكراً لك.

عادت شفق لإكمال قراءتها.
سألتها أميرة:

_ ماذا تفعلين يا خالة؟
_ اقرأ يا حلوتي، هل تجيدين القراءة؟
هزت رأسها نافية، أضافت الأم:

— لا تزال في الصف الأول، لكنها لا تستجيب للتعليم كبقية الأطفال، لا أدري ما السبب!

— ربما ظروف المدرسة، أو المعلمة، في هذه المرحلة يحتاج الطفل عناية مكثفة، وأن نزرع في نفسه حب العلم قبل أن نعلّمه.

— هل تعرفين معلمة خاصة بإمكانها أن تدرس أميرة عندنا في المنزل؟

فكرت قليلاً ثم قالت:

— أنا أدرس في الجامعة سأحاول أن أجد لك معلمة مناسبة، ستكون معلمة شغوفة في بداية مسيرتها، هل لك أن تعطيني رقم هاتفك؟

ابتسمت الأخرى وراحت تناولها الرقم.

دلف شاب بطول فاره، يرتدي ملابس عادية مرتبة، أجعد الشعر بلون كستنائي وعينان كذلك، ومعه طفلة صغيرة تبدو بعمر أميرة أيضاً، ترتدي بيجامة حمراء اللون، شعرها قصير يصل أذنها، وابتسامتها واسعة، جلسا في الجهة المقابلة، راح الشاب يتذمر بينه

وبين نفسه لماذا هذا الازدحام، المرة السابقة لم يكن هناك سواهما،
يأمل ألا يتأخر هنا، كي يستطيع العودة لعمله في الوقت المناسب.
فُتح الباب وخرجت ليان تضع كفها على خدها، وتشكر الطبيبة التي
تقف وراءها، نظرت إيناس للجميع قائلة:
_ أهلاً وسهلاً، دور من الآن؟.

نهضت شفق إلى ليان مودعة حنين التي تعرفت عليها لتوها، داعية
لها بسلامة عينا طفلتها، هكذا هنّ الفتيات يتعرفن على بعضهن
سريعاً وفي أي مكان كان.
أردف الشاب:

_ جيد أنها كانت هنا مرافقة، ظننتها مريضة أيضاً.
ابتسمت إيناس تناجي الله في سرها ألا يكثر الحديث كالمرّة
السابقة، هذا الشاب إذاعة كاملة، لسانه لا يستقر في حلقه أبداً.
قالت:

_ أستاذ منير، تفضل أنت والصغيرة للداخل.
_ رغم أنني على عجلة من أمري، ولكنني لن أكون ك تلك الطرفة
التي تصف حال الشعب في العيادة حينما "يقول آخر شخص: -
دعني أدخل قبلك فأنا أتألم، ليقول صاحب الدور الأول:

— أنت تتألم أما أنا فجئت لأشتري فلافل"
ثم نظر لحنين وابنتها قائلاً:
— تفضلي يا آنسة دورك قبلي نحن لا نشترى الفلافل هنا.
أردفت إيناس وهي تضع يدها على رأسها:
— من فضلك أستاذ منير لا داعي لكثرة الكلام، لي مع السيدة
عمل آخر، تفضلاً وسأتبعكما بعد قليل.

رد ضاحكاً:

— أشعر بأنك تهدين، ولكن حكم القوي على الضعيف كما يقولون
سندخل.
تحدثت إيناس إلى حنين بعد أن سلمت عليها وأوصلتها لعيادة طبية
العيون، وعادت لعيادتها، ألقت التحية فردها منير ثم قال:
— صدقاً حينما رأيت كل أولئك شعرت بأنني في محل لشراء
الفلافل، بالمناسبة أحدثك بعد خبرة في مجال ذلك العمل.
طلبت إيناس من الطفلة الجلوس على المقعد وبأن تفتح فمها وتسند
رأسها للخلف.

أكل منير:

—أحاول أن أبدد الصمت وليبدو الجو مرحاً لأجل نسيم، فتفاعلي
معي قليلاً حضرة الطيبة لتقليل التوتر.

—شكراً لك، ولكني لست متوترة وأحب العمل مع الأطفال،
وابنتك لطيفة وشجاعة صحيح يا نسيم؟

أجابت الصغيرة بنعم، وضحك هو متابعاً:

—ليست ابنتي، هي أختي، حسناً نعود لموضوعنا، أتعلمين أنا وأنتِ
نعمل في مجال واحد.

رفعت ناظرها إليه، فقال:

—كلانا يرتدي مريولاً أثناء العمل، وأيضاً كلانا يعمل فيما يخدم
فم الإنسان، ولكنني أفسد له أسنانه وأنت تصلحينها بالمقابل.
ابتسمت لا شعورياً وهي تتابع عملها، أكل:

—أرايتي؟ ها أنا أجلب لك الزبائن حضرة الطيبة، المجتمع متكامل،
ولكل منا فيه دورٌ مختلف، وعليه فإن بائع الفلافل لا يقل أهمية
عن الطبيب.

ابتسمت مجدداً قائلة:

صحيح، وشكراً لك على دروس التنمية البشرية أستاذ منير، بالمناسبة
لماذا لا تترك العمل وتبدأ في التأليف؟
_أتسخرين مني؟
_لا، ولكنه عملٌ يناسبك، ما شاء الله كلماتك نبعٌ لا ينضب،
ستنجح في وقت قياسي.
قالت ذلك ثم ناولت نسيم قطعة قطن معقمة بابتسامة حنونة قائلة:
_هل تؤلمك؟
_قليلاً.

ثم نظرت لأخيها وقالت:
_سأكون على ما يرام ولن أبكي.
نظرت إيناس بدورها لمنير بعد أن غسلت يديها مردفة:
_أتخيفها؟! دعها تبكي حتى الكبار يتألمون عند خلع أسنانهم.
_لا، هناك وعدٌ بيننا.
اتجهت لمكتبها وأحضرت القلم ذا الريش والقصص الملونة وأعطتها
للصغيرة، فارتسمت بسمة واسعة على وجهها وشكرتها بكل حب.
ابتسم منير قائلاً:

— جزاك الله خيراً حضرة الطيبة، لا زال هناك سنٌ آخر وبعض
التسوس في أضراسها، لو جلبت هدية عند كل جلسة ستغلقي
العيادة.

ضحكت مجيبة:

— لن يُفلس بائع الفلافل لو وزّع بعض الأقراص كضيافة لزبائنه
صحيح؟!

وبكيت كما لم تفعل من قبل، بكيت من كل الحواس، بكيت
كأنك لا تبكي بل تذوب دفعة واحدة... وتمطر!

لقائله.

تفارقت الصديقتان عند بناء عيادة الطيبة، قالت ليان قبل ذهابها:
— أشعر بأننا في مرحلة الشيخوخة وليس في عمر الزهور، من عيادة
إلى عيادة، اللهم لا شفاء إلا شفاؤك، وداعاً يا صديقتي.

دلفت شفق للداخل فوجدت براء هناك قبلها، سلّمت عليه وجلست

قبالته، سألتها عن حالها، فأجابت:

— بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟

— بخير لو كنت كذلك، لم تأتي الطيبة بعد، هناك بائع مثلجات

قريب من هنا، ما رأيك أن نذهب إليه ليتما تصل؟

أردفت السكرتيرة:

— ستصل قريباً، اهاها قد أقبلت.

دخلت سماح بخطواتها الواثقة والبسمة تزين وجهها، وطلبت من

شفق المجيء معها للداخل، ابتسمت الأخرى بدورها وتبعها مغلقة

الباب وراءها، قالت سماح:

— هذا هو براء؟

— نعم هو.

— حدثيني يا شفق، ما بك؟ تبدين متوترة، اسمعي أنا معكِ في أي

شيء، وبالطبع سأحافظ على خصوصيتك، هل هناك أي شيء لا

تريدين أن يعرفه عنك؟

— لا بأس، أريده أن يكون على علم بكل شيء، فالشعور بالذنب

اتجاهه يكاد يقتلني، مع أنني أكره أن يعلم عن حالي الضعيف،

وأخشى ردة فعله أو رؤية الشفقة في عينيه اتجاهاً، ولكن هذا أفضل.

—بالمناسبة هذه المرة الأولى التي تتحدثين فيها عن هذا الشعور، لدينا جلسة مطوّلة لأجل ذلك اتفقنا؟

—نعم.

—حسناً، أخرجي واطلي من براء الدخول من فضلك.

—ألا أستطيع البقاء معكما؟

—لا، هكذا أفضل عزيزتي.

خرجت شفق وبعد قليل دلف براء بقامته الطويلة وخطواته الثابتة، يرتدي قميص نيلي اللون مع بنطال رمادي، ألقى التحية وجلس قبالة الطيبة قائلاً:

—أنا براء خاطب شفق، أريد الاطمئنان على حالتها حضرة الطيبة.

—أهلاً، لن أتعبك بكثرة الكلام عندي ملف مختصر لحالة شفق سأعطيك إياه لتراه، ثم إنني لم أتوصل لشيء معين بعد، سوى أن نفسيته متعبة من أسلوب التربية والظروف التي عاشتها.

ارتسم الاستغراب على وجهه، لماذا قد تكون شفق قد عاشت طفولة صعبة؟ سألها عن ذلك، أخرجت الملف من الدرج وناولته إياه قائلة:

— ستعرف الآن كل شيء..

ما إن وقعت عيناه على اسمها الثلاثي أعلى الملف (شفق عامر بركات) حتى فار الدم في عروقه واكتسى الغضب ملامحه، قال بنبرة حادة:

— عامر بركات والد شفق؟! هل هو ذاته... أ أيعقل؟!!

ثم صمت وأخذ يقرأ الملف بأيدي مرتجفة.

— هكذا إذن هو بذاته!

سألته الطيبة عن تغير حاله وما الخطب، فنهض غاضباً ورمى الملف أرضاً، وما إن خرج حتى راح يصرخ في وجه شفق:

— هل تعرفين بأن والدك دمر حياة الكثيرين، وأنا منهم.

هل تعرفين بأنني فقدت والدي بسببه؟ كانت أمنيقي هي تدمير حياته ثم هدأت لعلمي بوفاته الجنونية بجرعة زائدة من ذلك السم، والآن ماذا؟ اكتشف بأن الفتاة التي أحببتها ابنته!

ضرب جبينه بيده بجنون، ثم قال:

—الآن أدركت سبب شعور والدتي بعدم الارتياح اتجاهكم، في كل
المرات التي كذبت بها شعور أُمي ندمت على ذلك.
نظر إليها متابعاً كلامه:

—تحملت ما فيه الكفاية من عائلتكم، أظن بأننا بالفعل وصلنا لطريق
مسدود.

قاطعته الطيبة التي خرجت إثر صراخه بجدة، وكانت تتابع الأمر:
—أبراء من فضلك أخفض صوتك واخرج من هنا حالاً!
خرج بعصبية دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

كانت ملاح الصدمة تحتل وجه شفق، اقتربت الطيبة منها بهدوء
وجلست بجانبها حاضنة إياها مردفة:

—سيكون كل شيء على ما يرام.
أردفت شفق بصوت واهن:

—كيف؟ وكلما فتحت نافذة ليدلف منها النور إلى قلبي تدلف
النيران؟!

—لا تقلقي يا شفق، أنت الآن في طريقك للعلاج والألم جزء من
العلاج يا شفق، هيا فرغي ما يعتمل في صدرك إثر هذا الموقف.
—لا أستطيع!

— بلى تستطيعين، تذكري كل ما يؤلمك، وكل ما حبسته في صدرك
عوضاً على أن تصرخي به وأخرجيه.
بقايا المواقف وتراكماتها تملأ قلبك فتفقدين قدرة التعبير عنها كلها،
أبكي وسترتاحين.

دلف مازن الذي جاء قبل الوقت الذي حدده مع شفق بقليل
ليحدث إلى براء، فذهل لرؤية شفق بأحضان الطيبة شاحبة
اللون، ذابلة العينين، أقبل بخوف عليهما يحاول فهم ما يجري،
رفعت شفق عينيها إليه، ونهضت نحوه بوهن، مردفة بنبرة شجية:
— كان شعوري صادقاً، ولطالما كان كذلك.

تقطع قلب مازن وهو ينظر إليها بعيونٍ ملؤها الحب والخوف، تقف
قبالته بتلك الحالة، تابعت وهي تضم كفها لصدرها وعيناها تتلأأ
بالدموع:

— مازن أريد...

ابتعلت ريقها، وأخذت أنفاساً متتابعة، وأكملت بصوت متحرجٍ
مغطسٍ بالمرارة:
— أريد والدي الآن!.

ثم وضعت كفيها على عينيها وانهارت بنوبة بكاء غزير، دمعت عينا مازن وهو يقف أمامها الألم يعتصر روحه، يريد أن يقترب إليها ويضمها علّها تهدأ، أن يمسح دموعها بيديه، ويقبل جبينها مطمئناً إياها بأنها ستكون بخير، وبأنه سيكون بجانبها دائماً، يدعو الله بسرّه كثيراً أن يتغمّد قلبها برحمته الواسعة، وأن يرزقه إياها ويريحها من هذا العذاب، نظر للطبيبة نظرة ضائعة متسائلة عمّ حدث.

اقتربت الطبيبة من شفق وضمتها إليها بعطف، ثم نظرت لمازن قائلة: — لا تقلق، شفق ستخبرك بكل شيء، هل لك أن تأخذنا لسيارتك؟ أوماً لها ومضى خارج العيادة وتعبته الطبيبة ممسكة بشفق وكانت قد هدأت قليلاً، أجلسها في المقعد الأمامي بجانب مازن، وأخذت لنفسها مقعداً في الخلف قائلة:

— أ.مازن، خذنا لمكانٍ هاديٍّ ذا هواءٍ نقي بعد إذنك. انطلق مازن دون أن ينبس بكلمة، رفعت شفق رأسها تبتلع شهقاتها إثر البكاء، نظرت لمازن والاحمرار يكسو وجهها وعيناها، ناولها عدة مناديل، ونظر لهاتفه الذي أعلن وصول رسالة، فتحتها فكانت من الطبيبة، كاتبة له بعض الأسئلة، طالبة منه طرحها على شفق

حتى تستخرج كل ما في دواخلها من كتمان وتعبر عنه لتراتح،
تردد قليلاً فبادلته الطيبة النظر في المرأة أي اطمئن وافعل ما طلبته
منك.

ناداها بصوت ملؤه الرجاء:

— شفق.

عاودت البكاء على نحو أخف مردفة:

— نعم؟

— ماذا حدث قبل قليل يا شفق؟

— منذ الصباح والقلق ينهش روحي، كنت أريد أحداً لجاني علي
أطمئن فلم أجد، كذبت شعوري، ولكن نوبة غضب براء علي
بددت أمانى وجعلته يتلاشى كلياً، شعرت بأنني مكسورة الجناح
ولا أحد لجاني.

مسحت دموعها بكفها الناعمة وتابعت بنبرة ألم دفين:

— دائماً ما تأتيني الصفعة من اليد التي تمنيت منها أن تربت علي
كتفي، يبدو أن مشاكل والدي تلاحقني حتى بعد موته.
صمت قليلاً وأكملت:

—ولكن رغم كل شيء أنا بحاجة الآن، أريد والدي يا مازن
خذني إليه.

ثم غرقت في أمطار بكاءها من جديد.

لم يكن فقد براء ما يؤلمها، لكنها فقدت الشعور بالأمان، وكان هذا
كافياً ليدفعها للاننيار متذكرة كل ماضيها، باكيةً على كل شيء
كانها لم تبكي منذ أمد بعيد، كانت روحها جافة جداً، وبحاجة
شديدة لتلك الدموع لترويه وتطفئ نيران فؤادها المتعب.

اشترت كوب حليب دافئ، وراحت تمشي بتباطؤ، عائدة للمنزل،
وهي تتأمل جمال السماء وتداخل ألوانها بلطف وانسجام مع غيومها
الوردية التي تشبه غزل البنات، كم تحب هذا الشفق الأحمر الذي
يزين السماء قبل الغروب، استرعى انتباهها سربٌ من الطيور
المهاجرة تحلق في السماء مصدرة صوتاً جماعياً جميلاً، رشفت القليل
من الحليب وعادت تحلق في السماء التي سحرت ناظرها، يا الله ما
أجملها!، تمنى لو أنها طيراً صغيراً يعيش ضمن سرب يحبه هكذا
وينتمي إليه، لا يعيش سوى في مكانٍ دافئٍ، تكره فكرة أن البرد
قادم قريباً جداً، فهي تقضي معظم الشتاء مريضة في الفراش،
انتشلها رنين الهاتف من أفكارها:

— أهلاً داليا كيف حالك؟

— أنا سعيدة جداً جداً، الأرض لا تسعني، أريد رؤيتك حالاً.

— حسناً، ماذا ستعطيني لو وافقت على لقاءك؟

ضحكت داليا قائلة:

— فلافل ما رأيك؟

انتقلت عدوى الضحك للآخرى متذكّرة منير، كان للفظ الفلافل قصة عند كلّ منهما، أردفت إيناس:

— ما قصتكم مع هذه الأكلة اليوم؟! صحيح أو لست لا تحبينها؟

— حينما يشعر الإنسان بالسعادة، يكون قادراً على منح الحب لأي شيء مهما كان، ويستشعر لذة كل الأشياء، حتى الطعام الذي لا يحبه.

— أشعر أن هناك قصة ما، حسناً تعالي إلينا، أمي تعدّ البطاطا بالفرن، هيا أسرع.

وفصلت انخط دون انتظار رد داليا، متذمرة من تفويتها لغروب الشمس بسبب تلك المكالمات.

بعد الغداء شكرت داليا خالتها واتجهت مع إيناس للمطبخ لتغسلا
الأطباق معاً، صاحت إيناس:
- جهزي لنا الشاي الأخضر ليتما أغسل الأطباق، وحدثيني عم
جری.

ابتسمت داليا وأغلقت الباب بهدوء مردفة:
- أخشى أن يسمعنا أحد، ثم ألا تملين هذا الشاي؟ صدقيني إنه لا
يفعل شيئاً داخل معدتك سوى أنه يستغيث من كثرة الطعام الذي
تطالينه بأن يحرقه.
- أخبريني كيف كان يومك يا شريرة؟
- لقد قضيت يوماً ممتعاً، ذهبت مع علي إلى بيت العجوز أم خالد
و....

قاطعتها إيناس بانفعال وقد سقطت إحدى الكؤوس من يديها:
- يا حمقاء كيف تفعلين ذلك؟ ألا تخافين! تخيلي أنه يشكل عصابة
مع تلك العجوز، ماذا لو تم اختطافك؟.

— إيناس بربكِ توقفي عن تخيلاتك المليئة بالأكشن والدراما، الحياة أبسط من كل هذا، ثم إنها إنسانة طيبة جداً وقد أحبتني، أتعلمين المسكينة تعيش وحدها.

— آه يا لها من مسكينة، أحضرها لتعيش معنا مرة واحدة!.
غطى الانزعاج ملامح داليا بالكامل، وكادت تجن هي تطالبها بأن تخفض صوتها، والأخرى تُخرج أعلى ما لديها في طبقاتها الصوتية، ما جعلها تصمت وتحبس بقية كلماتها، فاعتذرت إيناس وطلبت منها المتابعة، فتابعت بعد إلحاح عديد، تحكي لها عن جمال يومها وجمال الجو الريفي، وعن هواءه الذي يفتح الشهية، وكيف تناولت الفلافل بشهية معهم رغم أنها لا تحبها.

"السلام عليك أبتاه.."

جالسة وحدي في الغرفة، أكتب إليك بملاً ما في القلب من حبٍّ وشجنٍ وحنين، طلبت منهم أن أبقى وحيدة لبعض الوقت، وافقوا على مريض بعد إخراج كل الأدوات الحادة من الغرفة خشيةً عليّ مني، ممّ قد أفعله بنفسني، أخرجوا كل الأدوات الحادة بنظرهم،

لا يعرفون أن القلم إحداها، وأني إذ أكتب أفتح جراحي من جديد.

بعد انهيار ليلى البارحة، وطلبي المتكرر لمحيثك، أخبرتني الطيبة بأنه علي أن أكتب إليك كل ما أريد قوله لك، أن أتخيلك أمامي وأتكلم كتابةً ثم أرسلها إليها، فأرتاح وكأنني أرسلتها لك أنت، يا أبتى أخبرهم أن الكتابة لا تكفي، وأن الألم في قلبي تعجز أمامه هذه الأبجدية الضئيلة، أحتاج قربك، أن أرتمي في أحضانك لترت على رأسي بكفك الحنونة وتخبرني بأنك لجاني وبأنه لا شيء يستحق دموعي، لم يكسرني رحيلك بقدر ما كسرني أنك رحلت دون أن أعيش معك كابنة وأبيها، أنني لم أضحك يوماً وأخبرك بأنني أحبك كثيراً، أنني لم أرَ نظرة الفخر في مقلتيك اتجاهي، يؤلمني أنك أذيتني بحياك ومماتك، وأني لم أعش الأمان في حضورك ولا في غيابك.

(توقفت قليلاً تمسح دمعاتها الحارة، أعادت خصلاتها وراء أذنها، وتنفست بعمق، ثم تابعت).

"كنت أريدك معي لتوقف صراخ براء نحوي، ولتقل له بأن ابنتك لا أحد يتحدث إليها بتلك الطريقة.

هو أخبرني بأنه غير مستعد ليخسرني، وبأنه واثقٌ بأنني فتاة تستحق أن يحبها العالم كله، ولكن يبدو أن ثقته بمشاعر أمه نحوي كانت الأقوى!، لماذا يتحدث الناس بأشياءٍ فوق طاقتهم، أو بأشياء لا يعنونها تماماً؟ ألا يعرفون أن الغريق يتمسك بقشة رغم معرفته بكونها قشة؟! كنت رافضة فكرة الزواج، ولكن كان يروقي بأن هناك شخصٌ يتمسك بي بتلك الطريقة، ممّ جعلني أقبّل الفكرة، لكن على ما يبدو أن الجميع يحبك بنسختك الجيدة التي يرونها، وما إن يتبدى لهم شيء من سوءك رفضوك، رغم أن الذنب ليس ذنبي، لقد قال لي بين جنون كلماته: "مادام الوالد قد توفى بحالة جنونية، لا عجب إذن أن الفتاة مجنونة كأبيها".

أغضبني لحديثه عنك بتلك الطريقة، كنت أود أن أخبره بأن أبي ليس مجنوناً، إنه ضحية حبوب سامة كانت تُغيّب وعيه، وتجعل منه شخصاً آخرًا غير الإنسان الطيّب الذي نعرفه، ولكن صوتي اختفى، ماتت الكلمات على عتبات في دون أن تُنطق، وانتهى الموقف دون أن ينتهي كعادة المواقف التي تجرحني!

وداعاً الآن، فالدموع تنهال على خديّ، وأوراق، وطاولتي، وقلبي.
سامحك الله وغفر لك ورحمك.

— ابنتك التي تتوق لسماع هذه الكلمة منك.

(بعد عدة أسابيع)

كانت جيوش الغيوم تُقبل وتتجمع طوال الليل، ودوي الرعد يُوحى بعاصفة هوجاء، ومع ساعات الصباح الأولى أذن الله للسماء أن تبكي دموعها الغزيرة، كانت تتسارع شيئاً فشيئاً، لتعلن عودة الشتاء وبقوة، في ذلك الصباح كانت مغادرة السرير تحتاج جهاداً كبيراً، استيقظت أمل تبكي لا تود الذهاب للمدرسة، تعاطفت معها والداتها وتركها تنام بهناء، قامت شفق بنشاط ذلك الصباح كتبت في مذكراتها:

(تبكي الغيوم دموعها بقوة، فتغسل قلبي مما فيه، تغسل أفكاري، وتجعل اليأس ينجلي بعيداً، تبكي السماء فتحيا روحي وتحيا الأرض،

وتحيا كل المشاعر الجميلة عندما تُسقى بمائها، ضجيج الطقس يرتب
فوضاك فتهدأ، تنطلق الدعوات إلى الأحبة بكل دفء، ذلك أنك
عندما تُحب، تذكر كل الأشياء الجميلة بذلك الحب، يأتي المطر أو
كما يقال له الغيث، فيُغيث قلوبنا ويجدد أملنا ويُحيي إيماننا،
وبالفعل يُحيينا من جديد.

— شفق) .

ثم وقفت هي وبدور تنتظران انتهاء مازن من صلاته ليوصلهما، نزل
الجميع بعدها بقليل، اشترى مازن لهم كؤوس حليب ساخنة،
وانطلقوا في السيارة.

كانت شفق تتأمل حبات المطر اللؤلؤية التي تتسابق لترطم بحواف
زجاج النافذة، سألتها بدور التي كانت تجلس بجانبها وتُمسك كأس
الحليب بكلا يديها تستمد بعض الدفء منه:

— أين أنت شاردة؟

— تذكرتُ شيئاً، هل لي أن استشيركما به؟

أومأت بدور وأكدّ مازن بـ نعم، تابعت:

— منذ فترة كنت عند طبيبة الأسنان مع ليان، كانت هناك امرأة
تبحث عن معلمة لطفلتها التي في الصف الأول، ووعدها بأن ابحت

لها عن معلمة، ونسيت الأمر، تذكرت ذلك عند رؤية رقم هاتفها
البارحة، ما رأيكما أن أدرسها أنا؟.

— أرى أنه من الأفضل ألا تفعلي، الأطفال يُصيبون الإنسان
بالانهيار العصبي خاصةً في بداية دراستهم، ولو لم تكن صعبة الفهم
لتولت أمها ذلك.

— لكنني أحتاج ذلك لأبدأ شيئاً جديداً، أشعر أن حياتي راكدة، ثم
إن التجربة ستُكسبني خبرة تلزمني مع الأيام، ما رأيك مازن؟
— القرار لك يا شفق، ثم إن عليك أن تسألي والدتك وعمك في هذا
الشأن.

— أمي أعرف كيف أقنعها، تبقى عمي حدثه بهذا عوضاً عني يا
مازن.

استيقظت داليا تفتح عينيها بصعوبة، تبحث عن الهاتف الذي يغرق
في الفراش مع تحركاتها فتُضيعه كل صباح كالعادة، عثرت عليه
أخيراً، تفقدت الساعة كان هناك ساعة ونصف لبدأ دوامها، دلفت
لتطبيق الفيسبوك تلقي نظرة استطلاعية على أحوال الناس، ثم
ضغطت على زر البحث لتظهر لها صفحة علي المحفوظة هناك،

ضغطة أخرى وبدأت ترى هل من جديد، فوجئت بمنشور يحوي
مقطع فيديو مكتوب أعلاه (الأنساك؟ وأيموجي حزين)، بدأت
أفكارها تأرجحها يمنة ويسرى وراحت تتساءل: من هذه التي لم
ينساها للآن؟ ألسن طبييته ويحق لي أن أعلم!
فكرت قليلاً، لا تدري أيق لها أن تتدخل وتُحم نفسها لهذا الحد،
أم لا؟ لكن فضولها وربما غيرتها دفعها لتشغيل ذلك المقطع لترى
محتواه، فبدأ:

ريحانة القلب المهفهف... من حنانك زوديني
عيناك توقد في فؤادي... قصة الماضي الحزين
عيناك رائعتان مثل فراشة... حطت على أوراق زنبقة
وفاضت بالحنين... عيناك لا أدري لماذا
تزعجان هدوء قلبي... تفتحان بلا مقاومة حصوني
قد كنت أزعمت الرحيل... إلى المقابر صامتاً
من غير شوشرة فقيم ترجعيني
أوقفت داليا المقطع وبعض الغضب يخالجهما، أبعدت الغطاء عنها
وهي تدندن:

— عيناكِ رائعتان... الله .. الله!، أكاد أجن يا ربي، من هذه الرائعة، القبلة، التي يحن إليها في ليالي الشتاء الطويلة الباردة، للممت شعرها المبعثر والتقطت ملقط الشعر المعلق على الستارة بجانب السرير كالعادة لتجمعه فيه، كان الانفعال قد طير بقايا النوم العالقة في جفניה وأنساها البرد، تنهدت وضغطت لإكمال المقطع، تريد معرفة ما نهايته، ما المفاجآت التي ستسمعها فيه، ثم إنه كان طالباً علمياً لم تكن تدري بأنه يميل للأدب والقصائد، آه يا هذه الدنيا كم فيك من أمورٍ غير متوقعة، فاتها القليل وهي شاردة، تابعت معه عند وصوله لما يلي:

أنساكِ ليلٌ في مخيلتي تسافر فيه عيناكِ
أنساكِ...

أجيبني فإن البعد والحرمان شيءٌ فوق إدراكي
وهل أنسى خيوط الشمس تلفح خدكِ الباكي
وهل أنساكِ يا أماه كيف وقلبي مأواكِ

أغمضت عينيها ثم فتحتهما بسرعة، مهلاً ماذا قال لتوه؟ أماه؟! ضربت وجهها بكفها مستوعبة الأمر، بعد أن عادت بالمقطع قليلاً لتأكد، شعرت بالأسى لأجله، يشواق لأمه ويعيش وحيداً في أيام

ليلها طويلٌ لا ينتهي، لا سيما أن أشباح الاكتئاب والكوابيس
تتربص به، دمعت عيناها، عادت لتمدد على السرير بعد زوال نوبة
الانفعال التي أصابتها، أكملت بقية المقطع فقد راق لها الكلمات
مادامت للأم في نهاية الأمر، فهي أيضاً تشتاق لأُمها البعيدة.
أحبك أينما تمضين عن عيني ألقاكِ
وطائر نورسٍ يشدو هنالك في أنين البحر
ملاً البحر أهواكِ
على الحيطان ترتسمين، وفي الأوراق تبسمين
ومن أرض إلى أرض يرافقني مُحياكِ
وبين الفجر والإشراق تنبعثين من روعي
فلا أدري إذا ما كنتِ امرأة أم الإصباح غناكِ
أأنساكِ؟!*

*أنشودة موجودة بصوت: عمار صرصر وموسى مصطفى.
المنعطفات هي التي تصنعنا.. الطُرق السالكة لا تؤدّي إلى شيء..
لقائلها

بعد الظهر دخلت إيناس للعيادة والطفلة نسيم كانت بانتظارها،
ألقت التحية، وأمسكت بيد الطفلة ودلفتا للداخل، سألتها إيناس:
— كيف حالك يا جميلة؟، هل تأخرت عليكِ؟
— بخير الحمد لله، أتيت منذ قليل فحسب، منير قال لي أنه لن يتأخر.
— لا مشكلة يا حلوتي.
قالتها بعد أن وضعت حقيبتها جانباً، وشرعت ترتدي مريولها، ثم
تابعت:

— لماذا لم تأتي الأسبوع الماضي يا نسيم؟
— لم يكن منير يملك المال، قد دفعه كله للإيجار.
— كم فرد أنتم بالعائلة؟

— أنا ومنير فقط، بابا مريض لا يعمل، وماما تعمل في صنع
المخللات وغيرها من المعلبات وتبيعها في السوق.
شعرت إيناس بغصة لأجلها، قالت مستغلة جمال طفولتها، فيوم
الخميس تعالج الناس فيه بالمجان وبالتأكيد لن يقبل منير بنفسه لو
أخبرته:

— أخبري أخاك بالمجيئ يوم الخميس اتفقنا؟
— حاضر، أرجوك دعي الألم يشفى سني تؤلني.
— حينما تعودين للمنزل اطلبي ذلك من الله، ادعي الله بكل ما
تحتاجينه.

— وهل الله سيسمعني ؟
— طبعاً يا حلوتي، هو يراك ويسمعك، وهو معك على الدوام، لذلك
ادعيه فهو قادر على كل شيء، أما أنا فأحاول فقط تخفيف هذا
الألم.

— حضرة الطيبة، أنتِ طيبة بكائع الحلوى.

كانت إيناس مستمتعة بحديثها سألتها:

— ومن بائع الحلوى هذا؟

— كنت عائدة من المدرسة في يومٍ ما، وكنت جائعة جداً، مررت
ببائع الحلوى والرائحة سحرتني لكنني لم أكن أحمل المال معي،
وقفتُ أرى كمية الناس الكثيرة التي تشتري، فترك العم الطيب
كل الناس وخرج نحوي، حاملاً معه قطعة كبيرة وساخنة من
الحلوى اللذيذة، لا أنسَ طعمها للآن.

ابتسمت إيناس لبراءتها، تُفكر بمدى الرحمة التي يضعها الله في قلوب
خلقه، وتحمد الله بأن الدنيا لا تزال بخير، طلبت من نسيم الجلوس
كالعادة لتبدأ عملها.

بعد قليل أنهت عملها، وعقمت يديها وأعطت قطعة كعك للصغيرة
قائلة:

— تفضلي، كليها عند وصولك للبيت، سيكون عندها الوقت مناسب
لتناول الطعام.

— ولكن ألن أصاب بالتسوس ثانية؟ منير أحضر لي فرشاة أسنان
وردية عليها سمكة صغيرة، ووعدته بالمقابل ألا أعود لتناول ما يضر
أسناني.

ابتسمت إيناس لبراءتها ثم وضعت المزيد من الكعك في كيس
بلاستيكي وناولتها إياها مردفة:

— لا تقلقي، أنها مملحة بطعم الكمون ومفيدة ستحبينها.
شكرتها الصغيرة ومشتا معاً نحو الباب، عند خروجهم، رأت منير
جالساً، وبين يديه كتاب ما يقرأه، تنبه لصوت الباب، فأغلق
الكتاب ووقف مُلقياً التحية وشاكراً لجهود الطيبة، سألته إيناس:
— ماذا تقرأ أ. منير؟

ابتسم مجيباً:

— كتابٌ بعنوان: "فقدان التوازن الاجتماعي"، يبدو كتاباً جيداً،
استعرتَه قبل قليل بسعر جيد، بإمكانك أخذه بعدي، هناك مكتبة
رائعة قريبة من هنا، بجانب قرطاسية النور، تبدو قديمة جداً عن
بعد، لكنها تحوي كتباً قيمة، وتتيح الاستعارة بعكس بقية
المكتبات.

— جميل جداً، شكراً لك.

— كم تأمرين حضرة الطيبة؟

أخبرته بالمبلغ وقد انتقصت منه بعد معرفتها بظروفهم الصعبة، لم
تكن تعلم أن هناك شباباً تحمل بيتاً كاملاً وتعمل وتتعب، ورغم
ذلك تقرأ وتسعى لإصلاح نفسها رغم صعوبة الظروف، استغرب
من المبلغ فتعللت ببعض الأسباب علّه يقتنع، فأجاب:

—مؤسف بأن الطبيب يأتيه مبلغ كهذا.

ناولها المال وتابع:

—لأنصحك نصيحة أغلطي العيادة، وافتحي مشروع وقومي ببيع

وجبات الحفلات كالفطائر وورق العنب وغيرها.

ضحكت إيناس:

—أ. منير تُشعِرنِي وكأنني عجز عندها تسعة أطفال وتريد إطعامهم، لا

مشكلة عندي في ذلك، الحمد لله على عطاءه وكرمه.

—بالتأكيد لن تفعلها، لم تطحن نفسك بالدراسة، لتعودي للطحن

مرة أخرى ولكن في المطبخ هذه المرة.

نظر لإيناس فكانت ترفع حاجباها استغراباً، تابع:

—لا تأخذينا على الإزعاج، ولكن سنبقى قليلاً حتى تهدأ الأمطار.

—لا عليك تحدث بما شئت، فهذا الجوى يشعِرنِي بالنعاس سأنام لو عمّ

الصمت، وكما ترى العيادة فارغة اليوم.

—هل أخبرك بآخر حكمةٍ توصلت إليها.

اومأت إيجاباً، فأردف قائلاً وهو ينقر بأصابعه فوق الكتاب:

—الحياة تطحن كلَّ منا بطريقة مختلفة، عن طريق الدراسة، العمل،

ظروف الحياة، حتى العائلة قد تضغط على الشخص كثيراً، فيُعاد

تشكيله من جديد، لا أحد يكبر وينضج مجاناً، جميعنا دفعنا ثمناً ما لنصل إلى ما نحن عليه الآن، لذلك علينا الرضى.

ربما نحب ما كنا عليه سابقاً، ونشعر بالحنين للماضي، ولكن بالطبع لو بقينا كما كنا، لم نكن لنصبح كما نحن على هذا الحال.

أتعلمين نحن بطريقة ما نشبه أقراص الفلافل، تكون هشة وطرية جداً في البداية، ولكن بفضل إغراقها بالزيت على حرارة مرتفعة، تنضج وتصبح أقوى بكثير، بحيث أنها لو سقطت لن تنكسر، لكنها في حالتها الأولى ستنهار وتتبعثر لو تعرضت للسقوط، حرارة ضغوط الحياة صنعت منا أشخاصاً أقوياء، والشخص القوي له قبولٌ أكثر من الشخص الضعيف، جربي أن تضيفي شخصاً ما قرص فلافل غير مقلي بالتأكد لن يقبل به، كذلك نحن لو بقينا ذوي نفسيات هشة، لن يتحملنا أحد، ولا حتى نحن لن نحتمل مواجهة الحياة لو بقينا على تلك الحال.

قالت:

—الخلاصة: بأنه على الرغم من اختلاف أساليب العيش التي نعيشها، إلا أن جميعنا قد مرّ بنفس المقلاة التي صقلت شخصيته.

ضحكا معاً، أخبرها ممازحاً:

— بدأت تفهمين فلسفتي.

أجابت:

— بالمناسبة ألم أخبرك بأنه عليك أن تترك العمل وتبدأ بتأليف كتابك الخاص.

— إنها هواية، لن تصلح أبداً لتطعمني خبزاً، ولكن في نهاية الأمر تبقى القراءة والكتابة هي المتنفس الوحيد الذي باستطاعته أن يخفف عنا ما نحن فيه.

كانت تمشي بتمهل نحو عيادة الطيبة سماح، وهي تستمتع بالأجواء الشتائية ورائحة الأرض المنعشة بعد هطول الأمطار، لا تفهم كيف لمجرد طقس كهذا أن يزرع فيها كل هذه السكينة، كانت تدعو بأن يُديم الله عليها السكينة ويروي قلبها راحةً واطمئناناً.

— مساء الخير د. سماح.

دلفت للعيادة كانت ترتدي فستاناً رمادياً فضفاضاً مع حجاب وردي فاتح اللون، ابتسمت الطيبة ترد التحية ثم قالت:

— قرأت رسائلك، أخبريني يا شفق كيف وجدتي هذه الطريقة؟

— أن تكتب الأشياء الجارحة التي في داخلك كأن تخرج قطعة زجاج من داخل الجلد، مؤلمة جداً عند إخراجها، ولكنها مُريحة على المدى البعيد، قد أتوجع لو لمست مكان الألم بعد نزعها، ولكن مع الأيام سأراه وألمسه دون أن أتأثر فقد تَطهر ونظف الآن، تبقى فقط أن يلتئم.

ابتسمت سماح قائلة بلطف:

— تعبيرك مذهل، عليك أن تهتمي بموهبتك الكأبية يا شفق، اسمعي — سنتحدث الآن عن شيء يدعى: "المواقف غير المنتهية"، أخبريني متى آخر مرة كتمتي بعض المشاعر في داخلك؟ أجيبي بغض النظر عن المرة الأخيرة.

أخبرتها عن موقف أم براء في المزرعة، وكيف أنها فقدت شعورها بالأشياء واستيقظت وهي على وشك جرح معصمها بالسكين، فسألتها عن شعورها في تلك الحالة، فأجابت:

— مرة واحدة، كنت أشعر بأنني أنفصل عن نفسي ولا أستطيع التحكم فيه، وفي معظم الأحيان المشابهة لا أشعر بأي شيء كما لو أنني نائمة تماماً، وعند استعادة وعيي لا أتذكر ما حدث.

—أظن أنني قد بدأت أفهم ما يحدث، المهم الآن هو أنك بخير،
لنعود إلى ما أخبرتك عنه بدايةً، باختصار إن الأشياء التي تكتميناها
داخلك بدل أن تعبري عنها تبقى في داخلك، وكذلك المواقف التي
كانت تتطلب منك أن تفهمينا وتعتطي ردة فعل اتجاهها وآثرتِ
الصمت، هي أيضاً مواقف غير منتهية ولا تزال تقبع في داخلك،
وتجعلك تتعاملين مع المواقف المشابهة مستقبلاً بنفس الطريقة
السابقة، مثلاً أنتِ تنزعجين إن تدخل أحدٌ ما بأمرِك، ولو لم تكن
نيته التحكم بك كما تظنين، ربما يكون سؤاله جبالاً أو خوفاً عليكِ،
ولكن هناك موقف ما، لا يزال يتردد في عقلك ويجعلك تنظرين
للعالم من خلاله، بينما الحقيقة لا تكون كذلك.

وكذلك في أول يوم جئت به إلى هنا، أخبرتني أنك شفقة وبأن
الجميع يعاملك على ذلك الأساس، لكنك لست كذلك ولا أحد
يشعر بذلك غيرك، إنها أفكارك التي تعكس لك ما تفكرين به لتظني
أن الجميع يفكر بنفس الطريقة، هل تفهميني؟.

براء كان يشعر بأنك إنسانة رائعة فعلاً وانفعاله الأخير لا يعني بأنه
كان كاذباً، وشعورك بالذنب اتجاهه ذلك لأنك تنتقصين من

نفسك، بينما أنت رائعة وعليك أن تُصدقي ذلك، أنتِ فتاة تستحق الحياة والحب.

تستحق فرصة جديدة لتتصالح مع نفسها ومع العالم.
المهم أن تتخلصي من تلك المواقف وتراكماتها وتنهيا، وهناك عدة طرق لذلك اسمعي.

— أهلاً مازن، نعم قد خرجت من عند الطيبة للتو، لا بأس سأعود وحدي مشياً.

— أحضري لي معكِ حلوى للخبر الذي سأقوله لك هذا المساء.

— قل الآن ماذا هناك.

— قالتها متصنعة الحماس، فأجاب:

— وافق والدي على أن عملي بالتدريس.

— حقاً!

— نعم بالفعل، عملت على إقناعه لأجلك لأنه رفض بدايةً.

— شكراً لك، سأحضر لك أفضل حلوى وعد.

— ثم أوصاها بأن تنتبه لنفسها وانتهى الاتصال.

— أسرعت بالاتصال إلى حنين لتخبرها، وهي تتمنى أن تكون هذه خطوة موفقة في حياتها.

"ألا إنَّ عين المرء عنوانُ قلبه
تُخبرُ عن أسرارِه شاء أم أبى"

لقائله

كانت جالسة قرب المدفأة، تنزع حجابها المبتل ببطء، دلفت إيناس
ببيجامتها الوردية المحببة إليها، والتي تُضيف لطولها طولاً إضافياً
وتجعلها شبيهة النمر الوردي، وشعرها ينسدل خلف كتفها
بعشوائية، تحمل روايةً بين يديها، صاحت بانفعال:
- يا دودة الأرض لا تزالين جالسة هيا اخلي المعطف أيضاً،
وعلقه قرب المدفأة ليجف بسرعة.
- أرايتِ كمية التضحية والفداء لأجل رؤيتك؟!، ازدادت غزارة
الأمطار فجأة، ابتلت بكلي.
نهضت داليا تعلق معطفها ذا اللون النيلي وحجابها الأبيض، ورفعت
شعرها للأعلى مشبكة إياه، ثم جلست تستمد الدفء وهي تضم
كفيها لبعضهما وتحركهما معاً، قائلة:
- كيف حالكِ؟ أين الجميع؟.

— بخير، عزمنا عمتي على الغداء، لكنني متعبة آثرت البقاء هنا،
وطلبت منك المجيء لندجلس معاً.

رمت الرواية جانباً، ونهضت تجدل خصلاتها على عجل مردفة وهي
تجول بعينها في المكان:

— داليا من فضلك رتي الردهة، سالم قلبها رأساً على عقب قبل
ذهابهم، وأضيفي بعض الأخشاب للهدفأة، سأذهب لأعد ما نأكله
وأعود.
— حسناً.

أطعمت تلك النهمة التي تمضغ الأخشاب بالسنّة النار، كانت الغرفة
كبيرة، بيضاء ذات أثاث بسيط ومرتب، وعليها لوحات بآيات
قرآنية، وساعة خشبية تُشير إلى الثالثة عصراً، ما كان يحتاج ترتيب
هو تلك الألعاب المتناثرة هنا وهناك، أحضرت الصندوق الكبير
وراحت تُخبأهم، قطعة وراء الأخرى.

عادت إيناس تحمل صينية تحوي كوبين من القهوة، مع قطع من
الكيك والحلويات.

وضعتها على الطاولة، سألت:

— أين أنت شاردة يا داليا؟

وقفت حاملة بعض المكعبات واضعة إياها على الطاولة وأجابت:

— أتأمل هذه.

— ما الذي تتأمله بها؟

قالتها باستغراب وهي تمد طبق الفنجان لداليا، وتتناول قضمة من الكيكة.

— هذه المكعبات تشبه طبيعة العلاقات نوعاً ما، إننا في النهاية لن نربط بقطعة تعجبنا ولا بالتي تشبهنا بل بالقطعة المناسبة لنا. أخذت رشفة قهوة وتابعت:

— مثلاً فيما سبق كنت معجبة بأحمد الخطّاب، كنت أراه يشبهني كثيراً وهذا ما زاد إعجابي به بعد إعجابي بلوحاته، طريقة حديثه، أسلوبه، ربطه للأمور، والمرح الذي كان رفيقه الدائم مع بسمته المعتادة، جميع هذه الأمور يشترك بها كلانا، الفارق بيننا كان أنه رجل مشهور، بعيد، يمتلك وسامة أكثر مني بكثير، ومؤكّد بأنني لست الوحيدة التي أعجبت به، لكنني أخطأت عدة مرات. — فيما أخطأت؟

— أنا فتاة متهورة يا إيناس، اغمس نفسي في أشياء أنا بغنى عنها، كنت معجبة برسمه، من الذي ضربني على رأسي وقال لي تابعي

صفحاته عبر وسائل التواصل؟، تابعته، زاد إعجابي وتعدى حده
اللازم، أحببت كل ما يخصه، وبدأت النسيج أحلاماً فوق
السحاب، أحلاماً بعيدة عن النزول إلى الأرض، ولو نزلت
ستتبخر، أو ستهطل مع دموع السماء لتشكّل دموعاً في عيني،
دموعاً تحكي للأرض عن أحلاماً فوق السماء، ما كان ينبغي لنا
السعي وراءها ولا تمنّيها.

— اهدئي، وتذوقي هذه الحلوى، ليست المشكلة بهذا الحجم، لم أفهم
ما علاقة أحمد بقطع المكعبات، ثم إن أمره بقي حلماً أنا لا أفهم
شيئاً.

— إعجابي بأحمد قادني إلى علي.

— وما شأن علي، هل أزججك؟

— أفكاري متشابكة دعيني أرتبها بالحديث معك ولا تقاطعيني من
فضلك.

— حسناً تفضلي.

تناولت قطعة حلوى صغيرة واستأنفت حديثها:

— ما الذي كنت سأجنيه من لقائي بأحمد؟ لم أكن أفكر بذلك
وقتها، كنت أفكر فقط بأنني أريد رؤيته، وذلك أدى للقاء بعلي،

علي مختلفاً تماماً، يشبه ملاح أحمد لكنه لا يشبه شخصيته، ومع ذلك شعرت بشيء مختلف اتجاهه، ربما..
—ربما ماذا؟

—ربما كان حباً، أدركت أننا لا نحب من يشبهنا بل من يختلف عنا ويكمل نقصنا، علي هادئ، أنا صاحبة، هو متزن، أنا متسرعة، هو حزين وأنا مبهجة، الكثير من الاختلافات وبالمقابل نتفق في الكثير أيضاً.

رشفث ثانية من قهوتها ونظرت للمدفأة، ثم للمكعبات وأكملت وهي تحركها أمامها:

—تسرت هنا ثانية واندفعت نحوه، أردت رؤية أثري عليه، وإعادة البسمة إليه، كان عليّ معاملته كمريض وأنا طبيبته فحسب، لكنني طرت بأحلامي فوق السحاب أيضاً.

—لكن ذلك ليس ببعيد، أنت لا تعرفين ما موقف علي اتجاهك.
—بغض النظر عن موقفه، كان علي ألا أفكر بتلك الطريقة واستنزف طاقتي وعاطفتي في طريق لا أعرف نهايته، وإلى أين سيوصلني، انظري يا إيناس.

حركت المكعبات، أمسكت الزرقاء والخضراء قائلة:
_ هذه مثلاً تشبهني، وهذه تشبه أحمد، إنهما متشابهتان جداً، ذات
الفراغات أيضاً، لذلك هما لن يشكلتا قطعة/علاقة معاً ولن يصلحا
لذلك، بينما هذه (أحضرت القطعة الحمراء) لا تشبهها وتشكل معها
قطعة واحدة جميلة، أما هذه _القطعة الصفراء_ غير مناسبة معها
ولا تكمل الصورة لكنها تشكل معها قطعة ما.
تهددت ثم أكملت:

_أنا أخاف من النصيب يا إيناس، أخاف من أن ارتبط بشخص
يناسبني بطريقة ما، ولكنني في داخلي لا أملك حباً اتجاهه،
والأسوأ أنني لا أدري ما مصيري مع علي، وكيف باستطاعتي
التحكم بمشاعري نحوه، أستطيع تمييز من أحب من خلال اندلاع
غيرتي عليه، وقد اكتشفت بأنني سأألم كثيراً لو لم يكن عليُّ لي.
_كيف اكتشفت ذلك يا داليا؟ ما بك اليوم؟

_سأحكي لك بالتفصيل، ولكن لا تستهيني بالأمر، خذي بيدي
للطريق الصحيح، شجعي يا إيناس لأكون أقوى.

كانت بدور مُتعبة وقد استهلكت كل طاقتها في الدراسة، وتحتاج أن تروح عن نفسها قليلاً، فاستأذنت أمها واتصلت بمازن متفقة معه على الخروج سوياً، عليها تبتعد عن هذا الضغط وترتاح.

بعد نصف ساعة ألتقت معه، نزل من السيارة مقترباً منها قائلاً:

— خيراً يا بدر البدور أنت، مالك؟

— متعبة قليلاً فحسب، لا تقلق.

وضع يده على كتفها مردفاً بحنان:

— أنتِ لها، مرحلة صعبة وستمضي، غداً فرحة النجاح ستنسبك كل هذا التعب يا حلوتي، كوني قوية كما أعرفك، هيا لننطلق.

ابتسمت ممتنة له، بدور تحب أخيها كثيراً، تشعر وكأنها لو بحثت في كل العالم لن تجد شخصاً ذا قلبٍ حنونٍ كأخيها، أردفت:

— مازن، دعنا لا نذهب في السيارة، أود المشي.

— كما تريدن، تعالي هاتي كفكِ إلي يا بدر البدور.

كانت نسمات الهواء الباردة والمنعشة، تداعب وجهيهما، وكذلك قلبها فيشعران بالطمأنينة، سألت بدور بعد أن لاحظت شروود ما زن:

— ما بك يا أخي، بماذا تفكر؟ حدثني عنك، وعن هذه الأيام كيف تمضي معك، وكيف العمل؟

— الحمد لله جميع الأمور بخير وعلى ما يرام، هل في قلبك مكاناً للسرّ يا بدور؟
ضحكت:

— مكان؟! أنا صندوق أسرار يا ما زن.
داعبها قائلاً:

— أعتقد أنه صندوق مفتوح، وسأفتضح بالتأكيد.
نكرته بيدها مردفة:

— يا شير، ألا تعرفني! ثم قل لي ما عندك هيا لا تهرب.
— اتصلت بي اليوم طبيبةُ شفق، وطلبت مني زيارتها لتطلعني على آخر ما توصلت إليه.
— وماذا حدث؟.

— أخبرتني عن حالة شفق، قالت بأنها تعاني من اضطراب نفسي يدعى "تبدُّد المحيط" إذ أنها تنفصل عن محيطها أو عن شخصيتها، ولا تشعر بأي شيء..

وسبب هذا الاضطراب هو الإساءة العاطفية أو الإهمال خلال فترة الطفولة، ومشاهدة العنف المنزلي، وقد تأكدت من ذلك بعد رسائل شفق إلى عمي، التي طلبت الطيبة من شفق كتبتها، وياها من رسائل يا بدور!.

المريح هو قولها بأن حالة شفق ليست صعبة، وبأن الاضطراب غير متفاقم عندها، وقد يتزامن معه القلق والتوتر وأحياناً محاولات لإيذاء النفس أو الانتحار، وأما عن محاولات الانتحار فإنها غير واعية وتلجأ إليها لتخفيف الألم الذي تشعر به، وأحياناً تؤذي نفسها انتقاماً من الآخرين..

— كيف حفظت كل هذا يا مازن! لكنها ستشفى يا أخي أليس كذلك؟

— نعم كذلك، ونرجو من الله أن يشفيها ويعافيها، ويلطف بقلبها.
— مازن.

— نعم يا بدور؟.

— أنت تُحب شفق صحيح؟

طالعها بنظرة استغراب رافعاً حاجباه، فأكلت:

— ماذا؟ ألن تجيب؟ على كل حال عيناك وحدها تؤكد، هيا اعترف
بذلك وافتح قلبك لي يا أخي، خفف عنك أنت إنساناً رائعاً يا
مازن، تساند الجميع بينما لا تستند على أحد وتحدثه بأملك، أنت لم
تشتكي يوماً.

تنهد قائلاً:

— أعلمين؟ أشعر بأضعاف الآلام حينما أراها تتألم، تذرف مقلتيها
الدموع، فتشاطرها روجي البكاء، العجز أمامها يدمي قلبي يا أختي،
آه لو رأيت رسائلها وكمية الوجد والاحتياج التي تسكن فؤادها، لا
أدري كيف لفتاة برقة الورد أن تحتمل كل هذا!
أ تصدقين يا بدور بأنني أفكر بالابتعاد عن البيت بأي طريقة كي
أتوقف عن رؤيتها بتلك الحال.

— أولست تحبها يا مازن؟

— بملاً ما في الأرض من حب.

— وهل يبتعد المحب؟

صمت قليلاً بينما أجابت عيناه، شدت على كفه وتابعت:
— اصبر يا مازن، صدقني رغم شعورك بأن قربنا منها لا يغير شيئاً
ولكنه يغير الكثير، سندعمها وندعو لها، سيزول المرض لتغمرها
العافية بإذن الله، الأمر يحتاج وقتاً وصبراً، أسنتركها وحدها؟ هي
بحاجة للشعور بأن هناك من يحبها ويثق بها رغم ما بها ولو لم تُبدي
لنا ذلك، وأما عن قلبك.

نظرت إليه بابتسامة لطيفة مردفة:
— فثق بأن الله لا يترك قلباً مُتعباً، ويجاهد الله في ثباته، دون أن يقرّ
عينيه بما يرجو ويجبر كسره يا أخي.

"السلام عليك يا أبتى، يا طائراً هاجر وترك عصفورته الصغيرة
مكسورة الجناح، عصفورة لا تعرف كيفية الطيران، أعصفورة
تلك التي تُسجن بدون قفص، وترى جمال السماء ولا تجرأ على
التحرك نحوها؟!"

أزف إليك خبراً جميلاً لكنه بدا كئيباً فجأة، حتى أشياءنا الجميلة
تفقد رونقها حينما لا نجد من نشاركها معه، بصراحة يوجد من

أشاركه إياها، لكن مشكلتي هي غيابك وحاجتي إليك، ومشكلتي الأكبر هي ذكرياتي التي ترتسم أمامي فجأة وتكرّر كشريط لا أستطيع إيقافه، ولا يمكنني إلا أن أجزّ وراءه مستعيدة كل ذلك وكأنه يحدث لتوّه!.

مؤلة هي النجاحات التي لا ترى فيها عيون من تحب تنظر نحوك بفخر واعتزاز فتشعرك وكأنك ملكت الدنيا بما عليها. الامتحانات التي استنزفت كل طاقتي انتهت وظهرت نتيجتها اليوم، كانت الأجواء مبهجة فعلاً، رأيت إحداهن تتصل بوالدها لتخبره ذلك بفرح، والأخرى بوالدها لتخبرها بأن تعبها معها لم يذهب سدىً، والكثيرات يحتفلن، كلّ واحدة بطريقتها، قبل قليل رأيت منشوراً لصديقة لي، تبدو وكأنها في حفلة، والدها يقف قبالتها ويقبل جبينها، وقد كتب لها كلاماً جميلاً ولطيفاً، كلاماً بإمكانه أن يجعل للفتاة جناحان تطير فيهما أبعد ما يمكن بفرحتها تلك، كلاماً ذكرني بأنني طائر بلا جناحين، لم يؤلمني الحفل، ولا التفوق الذي حازت عليه، ولا المنشور ذلك.

أنا فتاة معقدة، تؤلمها كل لقطة لفتاة تحظى بحب وحضن أب، فتاة تأثرها كلمات التشجيع والثناء إذ لم تسمعها طوال طفولتها،

لا أدري ماذا يخسر الآباء لو كسروا جدار كبريائهم قليلاً ليحفظوا
بقلوب بناتهن الحزينة!.

أخذتني ذكرياتي للصغر، لليوم الذي أخذت فيه العلامة التامة،
حينها عدت أصرخ فرحاً للبيت، ومعى شهادة امتياز من المعلمة،
كنت لا أطيق صبراً حتى أخبركما بإنجازي الجميل، حتى دخلت
ورأيتك غاضباً وصراخك يصدح في المنزل، وجدت الزجاج
المكسور هنا وهناك، رغم خوفي إلا أنني اقتربت منك، ظننت بأن
سماعك لهذا الخبر الذي يفرحني سيسعدك ويذهب عنك الغضب،
لكني ما إن أخبرتك حتى انهلت علي وعلى دراستي وحياتي ويوم
مولدي بالشتائم الغليظة، تحجرت الدموع بمقلتي، ورحت اتجه إلى
المطبخ عند أمي، وفي طريقي دلفت زجاج صغيرة في قدمي
اليسرى أثناء سيرى، فبكيت عندها بصوت عالٍ، مما جعل أمي
تأتي تُمسك بيدي وتجبرني على المشي سريعاً معها لغرفة النوم حتى
لا يزيد ذلك من غضبك، مع كل خطوة كان بكائي يعلو ويزداد،
وصلنا الغرفة، فمسحت أمي دموعي وقالت لي: "كفى يا حبيبتى، بابا
لا يقصد".

فقلت لها بين دموعي بصوت باكٍ أن هناك زجاجة في قدمي تؤلمني وأنها جبرتنني لأمشي عليها، تنهدت أُمي حينها حتى خلتها ستسحب كل هواء الغرفة، جثت على ركبتها، أجلسني وأخذت الشهادة مني بسرعة حتى دون أن تنتبه لها، خلعتُ جواربي وبدأتُ تحاول إخراج تلك الزجاجة.

في ذلك اليوم، غُرزت الزجاجة لعمق قلبي ولم تخرج للآن، بينما زجاجة قدمي خرجت بعد ذلك بصعوبة.

تنهدت شفق بعد قراءة تلك الرسالة، مسحت دموعها بطرف سبابتها، وحملت القلم وبدأت بالكتابة على الوجه الآخر لتلك الورقة.

"مرحباً مجدداً، لقد تركت الرسالة يوم أمس، كنت اليوم في جلسة عند الطبيبة، وحدثتني عن المواقف الغير منتهية، شعرت أن ما كتبته البارحة كان موقفاً غير منتهي، لذلك أنا سأنتهيه الآن.

في فترة ما من حياتي كنت أكرهك كثيراً، أكثر مما تتوقع، ثم كبرت وبدأت أفهم ما الذي كان يحدث معك، مشاكل في

العمل، ومع أولئك الرجال السيئين الذي يتاجرون بذلك السم الأبيض، ومشاكل إدمانك كانت المصيبة الأعظم. عرفت أيضاً أنك فعلاً لم تكن تعي ما تفعل فعذرتك. أخبرتني أمي قبل قليل بينما كنا نتناقش بأنك كنت تحبني كثيراً وتخاف علي، وبأنك تشعر بالعجز اتجاهي لأنك لا تدري ما تفعل حينما تكون أسير تلك الحبوب، وبأنني كنت أستحق والداً أفضل منك، حدثتني بأنك غفوت تبكي في ذلك اليوم عندما عدت لوعيك وأخبرتني أمي بما حدث، قالت بأن شعورك — بالحزن لأجلي وبالعجز عن كونك أب جيد مهما حاولت — كان يضغظك، فتخرج ذلك الضغط بالصراخ علي حينما لا تعي ما تفعل!.

أخبرتني الطيبة بأننا حتى نتخلص من الموقف غير المنتهي، علينا أن نذهب لذلك الشخص الموجود في ذلك الموقف ونناقش الأمر معه، لنضع نهاية له، حتى يتوقف شعورنا السيء الذي يتكرر كلما مررنا بموقف مشابه، وقالت بأن ذلك يحتاج شخصاً شجاعاً، لذلك عدت إلى البيت، وقد قررت أن أواجه ذلك وأكون شجاعة أمام نفسي من الآن فصاعداً، جلست مع أمي جلسة مطوّلة، استفهم منها، وادعها تحدثني، وتجيّيني عمّ في داخلي من أسئلة، وفعلاً كما

قالت الطيبة، اكتشفت أن أفكاري ومشاعري كانت متضخمة
وغير واضحة، وها أنا ذا أعالج الموقف بالطريقة الثانية أيضاً، وهي أن
أحاول تخيلك والحديث معك لأفرغ كل ما في قلبي، ها قد
حدّثك وبكيت وكتبت، تبقى شيء واحد فقط، هو أن أخبرك
بأنني قد ساحتك، وبأن كرهني نحوك كان يقل كلما عرفت عنك
أكثر وتفهمت شعورك وموقفك، وكان ينسى كلما اشتقت إليك،
واليوم بعد معرفتي بحبك لي من أُمِّي تلاشى كل ذلك، قلبي نقي
تماماً اتجاهك صدقني.

بابا أنا أحبك.

لم أكن أدري أن المواجهة مريحة هكذا، رغم أنني امسح دموعي
بين الفينة والفينة، إلا أنني أشعر براحة حقيقة أثلجت صدري.

— صباح الخير.

— صباح الخيرات، تفضل.

ردت شفق وهي تناوله علبة من حلوى غزل البنات البيضاء،
المزينة بالفستق.

ضحك قائلاً:

— ما هذه؟

— غزل البنات.

— أعرف ولكن لماذا تعطينها لي؟ أتريني فتاة صغيرة؟

— جلبت لك البارحة حلوى الكفاة، ولكنك تأخرت في العودة، فتم
أكلها كلها وفاتك، لذلك اقبل غزل البنات هذه كتحلية لجعلك
عمي يوافق على عملي بالتدريس.

— دعها لك يا شفق، كنت أمارحك فحسب.

— مازن سأفتح العلبة فوق رأسك إن لم تأخذها مني.

تابع الضحك وتناولها من يدها مردفاً:

— أرى بأن شفق الشقية عادت هذا الصباح، بالمناسبة أتذكرين أول

مرة جلبتها لك أنت وبدور؟

كان مازن يجلس في الشرفة، وشفق تقف قبالة وتشرع في سقاية
أصص النباتات، أجابت:
_بالطبع أذكر.

أقبلت بدور، رمت دفترها على الطاولة بلا مبالاة، ونهضت لتجدد
الطعام والماء للطيور مردفة:
_وكيف أنسى يا عديم الإنسانية!، جلبها لنا ثم راح يؤلف القصص
ونحن نستمتع بالأكل.
أكل مازن:

_الله العليم من فينا منعدم الإنسانية، أخبرتكما بأن الحلوى تُسمى:
"شعر القط" لأنهم يصنعونها من القطط البيضاء اللون، شفق راحت
تبكي على القط، وأنت تابعت الأكل وأخبرتني بأنك ستجلبين لي
قطط الشارع لآخذها وأحوّلها إلى حلوى وأجلبها لك.
امتلاّت الشرفة بالضحكات والذكريات، ثم أخبرتهم شفق بأن اليوم
هو أول درس لها لابنة حنين، فدعوا لها بالتوفيق والتيسير.

دلفت داليا للعيادة لم تكن سماح قد ذهبت بعد، ألقت التحية فردتها الأخرى وسألت:

— كيف الأمور معك يا داليا؟.

— بخير الحمد لله، أشعر بأنه قد تحسن كثيراً.

— مهلاً عزيزتي، الاكتئاب مرض طويل ولا يرحل بليلة وضحاها يا داليا، حتى لو بدت على المريض آثار التحسن، هي نوبات متباعدة تجيء وتذهب، عليك التعامل معه ومعالجته بتؤدة وحلم، بالمناسبة تحدثت اليوم مع إحدى المرضى عن موضوع الثقة بالنفس أو ما يسمى (الشعور بالاستحقاق)، هل حدثتِ علي عن ذلك؟ معظم مرضى الاكتئاب يعانون من عدم الاستحقاق.

— لا لم أحدثه سابقاً عنه، اليوم سأفعل إن شاء الله.

— كوني صبورة يا داليا.

— حاضر.

— حظاً موفقاً.

قالتها ومضت مغادرة المكان، وكذلك السكرتيرة بدأت تلهم أغراضها للذهاب فهي تعمل في دوام سماح فحسب، دلفت داليا للداخل، ضغطت زر تشغيل التكييف وجلست تراجع بعض المحاضرات

السابقة، كان الهدوء يعم المكان، وصوت المطر وحده يخيم على الأجواء يبعث على الطمأنينة.

بعد نصف ساعة وصل علي، سألت عن أحواله وأخباره، ثم ابتدأت الجلسة سائلة إياه:

— كم تُقيمُ ثقتك بنفسك من عشرة؟
— ربما.. خمسة.

— ما مفهومك للثقة بالنفس يا أ.علي؟

صمت قليلاً ثم أجابها بالقليل من الكلمات، تبادلنا معه بعض الأسئلة، ثم راحت تقول:

— اسمع يا صديقي، هذه انحرافات التي يتناقلونها عن الشخص الواقف بنفسه غير صحيحة، فمعظم الناس يظنون أن الشخص الواقف بنفسه هو ناجحٌ دائماً، قوي ولا يشعر بالوهن والتعب، حتى الفشل لا يقترب منه، وهو على صواب، وجميع أموره على ما يرام، لكن هذه أوهام والحقيقة ليست كذلك، هذا الشخص خارق وبالطبع ليس موجوداً.

نحن بشر نُخطئ ونصيب، جميعنا نفشل ونخاف ونضعف، الله وحده هو القوي دائماً، نحن علينا أن نثق بالله ونستمد قوتنا منه.

—إذن، كيف نتعامل مع ضعفنا ونقصنا ونثق بأنفسنا أيضاً؟.

—أولاً: عليك أن تعلم بأنك بشر، ومن كمالك أن ترضى بنقصك، ولا تركض وراء المثالية والكمال، فالكمال لله وحده، تقبل أن تُخطئ وتضعف بعض الأحيان، تقبل الفشل، تقبل الحزن، هذه من مقومات بشريتك، فإنك لن تتعلم دون أن تتعب وتُمر بالفشل، لن تشعر بطعم النجاح لو كان سهلاً هيناً، لا بأس أن تقع مرة، مرتين، عشرة، لا بأس ما دمنا نهض ونحاول من جديد.

فاعلم بأن قبول الضعف قوة، وقبول الفشل نجاح، تقبل نفسك بكل ما فيها وارفق بها، ثم حاول إصلاحها شيئاً فشيئاً.

ثانياً: عليك أن تصدق في داخلك بينك وبين نفسك بأنك تستحق أن تُحترم، وتُحب، وتعامل معاملة طيبة.

لا تربط شعورك بالاستحقاق بشيء قد فعلته أو بشيء تملكه، كنجاحك، إنجازك، مالك، وقولك وغيرها، أنت تستحق الثقة والحب بدون مقابل ومهما كانت حالتك.

ثالثاً: أعطي نفسك فرصة جديدة كل يوم، لا تسجن نفسك بالأمس وفيما حدث من آلام في الماضي، اعلم أن رحمة الله

واسعة، وعوضه جميل، إن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

والأهم، لا تقارن نفسك بأحد ولا تغيرها لتنال إعجاب شخصٍ ما، ولا تقبل بمن يضع لك الكثير من الشروط حتى يحبك ويقبل بك ويُطالبك بأن تكون ملاكاً، أنت لست جماداً، ليطلب بإعادة تشكيلك كما يريد، أنت بشر تمر بحالات مختلفة سيئة وجيدة، تتقدم أحياناً وتراجع أحياناً أخرى، ثق أن من يُحبك فعلاً سيحبك دون شروط وقيود يفرضها عليك.

نهاية يا صديقي، حاول أن تستبدل شعورك بالذنب إلى الإحساس بالمسؤولية، أي بدل أن تجلد نفسك عند الخطأ، كن شجاعاً واعترف بخطئك، لا بأس أن نعتذر ونجدد توبتنا، تعلم ألا تكرر هذا الخطأ ثانيةً، سامح نفسك وسامح الآخرين، فتوة العفو تمنحك قوة وتخفف من حملك

قبل ذهابك تفضل هذه الورقة واكتب عليها ما سأقوله لك الآن، وانظر إليها على الدوام:

(1) أنا بشر، أخطأ وأفشل وأضعف، ولا بأس في ذلك.

- (2) أنا أستحق أن أُقبل، وأُحب، وأُحترم، بدون شروط.
- (3) سأمنح نفسي فرصة جديدة كل يوم.
- (4) سأستبدل شعوري بالذنب اتجاه أخطائي، إلى شعور بالمسؤولية اتجاهها حتى لا أكررها، وأتعلم منها.
- ولا تنسَ أن تصلح علاقتك مع الله، وأن تلتزم أذكار الصباح والمساء، وتتلو القرآن، فإن تلاوته تحيي القلوب وتطمأنها.

بعد الدرس طلبت حنين من شفق البقاء عندها قليلاً، أعدت القهوة وعادت مردفة:

— شكراً على مجيئك فعلاً، أخبريني كيف هو مستوى ابنتي؟

رشت القليل من الماء وأجابتها:

— حباً وإكراماً يا حنين، مستواها جيد، بصراحة عندي لك بعض النصائح لو كنت ترحبين بسماعها.

أعادت حنين فنجانها للطاولة، وتنبت حواسها مؤكدة على سماع تلك النصائح.

— حسناً، الطفل في هذه المرحلة يحتاج إلى من يُبدي اهتمامه به،
اسألها عن نفسها عن الأمور التي تهتم لها، وتحاورني معها، فإن
الحواري يني شخصية الطفل بشكل كبير.

— وما علاقة الحوار؟ أميرة كثيرة الكلام طوال اليوم، ولكنها على
العكس تماماً في المدرسة.

— يا عزيزتي، جميع الأطفال هكذا، فهم بحاجة للكلام والثرثرة، أما
الحوار يختلف، عليك أن تسمعيها وتحاولين إبداء ردة فعل لكلامها،
كأن تبسمي أو تسألي عن شيء ما، تخبرنيها بأنك تُقدّرين
مشاعرها، فإن ذلك سيكسبها الثقة، وعندما تثق بنفسها ستستطيع
أن تتفاعل مع الأطفال في المدرسة، وكذلك سيمكّنك من فهم
طريقة تفكير ابنتك، وتعرفين مخاوفها ومواطن الضعف في شخصيتها،
وبالتالي ستدعمينها وتساعدنيتها على التخلص منها.

ذلك يحتاج صبراً، أعرف ذلك ولكنه سيوطد علاقتك بأميرة
كثيراً، ولا تقلقي سأساعدك في ذلك لن تقتصر مهمتي معها على
التدريس فحسب.

— فهمت عليك، جزاك الله كل خيراً يا شفق.

— حباً وإكراماً، سأعطيك أسماء كتب تربوية ستفيدك أيضاً إن أردت.

حينما خرجت شفق كانت تشعر بالسعادة والرضا، إن الإنجاز والعطاء دائماً ما يعود علينا بشكل إيجابي وشعور جميل، لم تتوقع بأن الكتب التربوية التي كانت تقرأها لتمنح أطفالها المستقبليين طفولة وردية، وتربية شاملة تمكنهم من التعامل مع جميع جوانب الحياة، ستفيد بها غيرها أيضاً، منحها ذلك ثقة لتثابر على ماهي مقدمة عليه. قد نظن بأننا حينما نسعى لإصلاح أنفسنا وتنميتها، ستستفيد نحن فقط، بينما قد يرانا غيرنا نفعل ذلك فيتشجع للمحاولة معنا، قد نكون ثبات غيرنا وثباته على هدفه، وبالتأكيد فإننا حينما ننهي من الاستفادة سنسعى للإفادة، وكما يقول علي الطنطاوي رحمه الله:

"ما الأمة إلا أنا وأنتم وهم وهنّ، فإذا لم يصلح كُلُّ مِنّا نفسه لم يكن للأمة صلاح."

— ماذا عندك بعد العمل يا منير؟

سأل علي صديقه في العمل، نزع الآخر مريوله وتناول معطفه
شارعاً في ارتدائه قائلاً:

— لا شيء، الحمد لله أننا أغلقنا اليوم باكراً، العم سعد طيب في
معاملته معنا، أحب مثل هذه العطل المفاجئة، بالمناسبة لماذا
تسأل؟.

— ما رأيك أن نخرج معاً؟

— لا بأس، هيا بنا، سأجلب بعض الطعام من الداخل لنأكله في
طريقنا، ستكون سهرة رائعة، أريد الاستماع لقصة حياتك كاملة.
— وهو كذلك يا منير، لدي أحاديث كثيرة تحتاج أذن منصتة.

مثلها تنحلّ أزهار البابونج في الماء الساخن إلى أن تذبل، أنا على استعداد أن أعطيك قلبي، في كلّ مرّة، مرّة تلوّ مرّة، كي تكون بخير.

— لقاءها

كانت تدرع رواق المستشفى ذهاباً وإياباً، تضمّ كفيها لبعضهما وتفرقع بأصابعها من حين لآخر معبرة عن توترها وخوفها، تلتقط دمعاتها عن عينيها الحمراء كل حين، أقبل مازن نحوها مسرعاً، فركضت إليه وضمته مجهشة بالبكاء، مسح على رأسها بصوت جاهد لجعله متوازناً كي يطمئنها:

— أهدئي غاليتي بدور، ما الذي حدث أخبريني؟

سحبت أنفاساً متتابة محاولة استرجاع صوتها، ابتعدت عن حضن مازن ماسحة دموعها عن خديها بعشوائية، مردفة بكلمات متقطعة:

— ذهبت لغرفة شفق لاصطحابها، كنا سنخرج معاً، ولكن ما إن دلفت حتى فوجئت لرؤيتها ممددة على أرضية الغرفة وأوراقها التي

كانت تحملها مبعثرة حولها، حاولت إيقاظها بشق الطرق، ناديت
وصرخت ولم تصحوا يا مازن.

صمتت مواصلة بكاءها، سألتها بجنون:

— وماذا بعد يا بدور أكلي، كيف هي الآن؟

— دخلت زوجة عمي الغرفة وجن جنونها، ظنت بأن ابنتها الوحيدة

قد ماتت، اتصلنا بالإسعاف وأتينا إلى هنا.

— ألم يخبرونك بشيء عن حالتها؟

— لا.

— أين الحالة ابتسام؟

— نزل ضغطها وفقدت وعيها هي الأخرى في إحدى الغرف هنا.

— حسبي الله ونعم الوكيل، وأمي؟

— لم أخبرها، لقد ذهبت مع أمل للروضة، هناك احتفال للأطفال

ودعوة لحضور الأمهات.

— الحمد لله، يا رب ألطف بها واحفظها.

ربت على كتف بدور ومشى معها نحو المقعد المجاور، جلسا معاً.

أردف قائلاً:

— لا نملك سوى الدعاء لها يا أختي، وهذا شيء عظيم فالدعاء قد
يغير الأقدار، ستكون على ما يرام بإذن الله.
كاد يفقدها عدة مرات ونجت بأعجوبة من ذلك، أيعقل أن يفقدها
هذه المرة؟ أجفل بمجرد الخاطر، راح يردد بينه وبين نفسه: "يا رب
عودتنا جميل لطفك، فألطف بقلوبنا يا الله وشافها"، "يا خفي
الأنطاف نجنا مم نخاف".

كانا يتناولان فطورهما معاً في مطعم يطلُّ على شاطئ البحر، الذي
تتلاطم أمواجه الهائجة لتصدر صوتاً يقع على مسامع داليا كالسحر،
ولا شيء أحب إليها من سماعه، تستند برأسها على كفها حاملة، تشعر
بأنها في حلم من فرط السعادة التي تغمرها، كان اللون الأزرق
ينسكب على كل الأشياء بتألق، فستانها الفضفاض الأنيق، السماء
الصفافية، البحر، غطاء الطاولة، والعينين اللتين تطالعانها بحب أمامها
الآن!

كانت مبهجة لدرجة أنها أدمعت في بداية اللقاء، راحت تتذكر
حديثها مع إيناس منذ عدة أيام، حينما أتت لعيادتها كالمجنونة،

الفرح يقفز في قلبها وعينيها، وكيف حكّت لها عن رسالة علي التي تلقتها أمس، كان يطلب رؤيتها لأمرٍ ضروري في الصباح، حينها اشتعلت في رأسها قناديل القلق، ولم تستطع إغماض جفניה طوال الليل، وفوجئت به في اليوم التالي إذ يحدثها عن رغبته بخطوبتها، وبأنه يريد رقم ولي أمرها في أقرب وقت، فصدّمت داليا تماماً ونهضت تاركة إياه جالساً وحده على مقعد الحديقة وذهبت.

من ثم توجهت إلى عيادة إيناس مباشرة، لم تأبه بالمريضة التي كانت عندها وراحت تروي لها عم حدث بالتفصيل، بينما الأخرى التزمت الصمت ولم تتفوه ببنت شفة، أنهت إيناس عملها مع تلك المريضة، ثم أغلقت العيادة وخرجت مع داليا متجهة إلى منزلها، حينما دخلا البيت سألت داليا:

— ما بك يا إيناس ها قد وصلنا للبيت، تكلمي ما بك؟

— أجنّتي أم فقدت عقلك؟ كيف تقولين بأنه يريد طلب يدك؟ هو مجرد مريض عندك فقط يا داليا، ثم إنه يمر بأزمة نفسية ولا يجد سواك لجانبه الآن، فمن البديهي أن يتعلق بك، لكنه ليس حياً حقيقياً ينبع من دواخله يا عزيزتي!.

— لا أبدأ، إن مشاعره حقيقية لقد أحسست بصدقها.
— داليا، ستندمين فيما بعد صدقيني.
— دعيني وشأني، في النهاية أنا من سيندم لا أنتِ، ها قد تأكد شعوره اتجاهي، أولستُ أحبه، إذن ما الذي انتظره أكثر من هذا! لأوافق وأعيش التجربة.
— يا حمقاء، أنتِ تظنين الأمر مغامرة بينما هو قضية حياة كاملة، لن أدعكِ لتكلمي أحلام العصر التي تحتل رأسك، هذا مستحيل، غامري بكل شيء يا داليا إلا في قلبك!
— للآن أنا لا أفهم ما مشكلتك مع الأمر.
— هو مريض أولاً لا يعني ما يفعل، ثانياً عنده مشاكل عائلية من هنا إلى خمسين سنة قادمة، هذا إن انتهت بعد خمسين سنة، ثالثاً أنتِ تتولين علاجه في الأساس لرفع علاماتك ودرجاتك في الاختبارات، ثم لا تنسي بأنك ستسافرين إلى عائلتك في السعودية بعد التخرج، كيف ستوافقين على طلبه وأهلك بعيدين؟
— كفاكِ ترديد كلمة مريض، حالته جيدة جداً ليس مجنوناً حتى لا يعي مشاعره وما الذي سيفعله، وقد أخبرته سابقاً بأنه مريض

الأول ولم ييدي أي انزعاج، أما عن عائتي فأنا أعرف تماماً كيف أقنعهم بالأمر.

ضربت إيناس وجهها بكفها عدة مرات متتالية ثم سألت:
— إذن ماذا ستفعلين؟

— أفكر بإعطائه رقم والدك.

رفعت حاجباه استنكاراً، فتابعت الأخرى:

— لا تضخمي الأمور يا إيناس، سيكون كل شيء على ما يرام، هيا ابترسي وقولي لي مبارك.

— دعيني اهدأ ثم نتحدث.

أفاقت من ذكرياتها على صوت علي يسألها:

— لماذا أميرتي صامته؟

— لأن اللغة عاجزة عن وصف شعوري.

— وكيف تشعرين؟

توردت وجنتاها وعادت للصمت، تابع:

— خلال هذا الشتاء لم أشعر بالدفء كما الآن، ولا أشعر بذلك إلا معك أنت.

ثم أخبرها بأن أموره قاربت على التحسن ووعدتها باحتفال جميل
يتمتئ بالفرح والأحباب، وأن هذا الاحتفال الصغير ليس كل
شيء، ابتسمت وكادت تخبره بأن وجوده معها يكفيها فهو بمثابة
كل الناس في عينيها.

خرج الطبيب فهرع الاثنان نحوه ليطمئنا عليها.
— خير حضرة الطبيب، كيف حالها الآن؟
سأله مازن فأجابه بهدوء:

— لا تقلقا إنها بخير الآن، حالة تسمم وأجرينا لها عملية غسيل
للمعدة، بإمكانكما رؤيتها حالما تصحوا.
قالها ومضى في طريقه، تنفس مازن الصعداء يردد الحمد لله هو
وأخته، وذهبا لغرفة السيدة ابتسام ليخبروها حتى يطمئن قلبها على
ابنتها.

بعد قليل خرج مازن يحمد الله على انقضاء هذا الكابوس على خير،
راح يفكر هل هو تسمم عادي من أحد الأطعمة يا ترى أم أنها
أقدمت على الانتحار؟! ما الذي أزعجها لتفعل ذلك؟ يا الله أسيبقى
خائف عليها هكذا على الدوام؟!

اتصل بوالديه وأخبرهما الأمر بروية وبطريقة مناسبة حتى لا يسبب لهما الخوف والقلق، ثم اتصل بالطبيبة طالباً منها الحضور، مشى بخطوات متثاقلة خارج المستشفى، قد تحمّل الأمور الأصعب دون أن يشعر بثقلها، ما له هذه المرة، يشعر وكأن الأمر كصخرة كبيرة تجثم فوق صدره، نحن أقوىاء ما لم يتعلق الأمر بمشاعرنا، نتحمل، نصبر نتابع، ولكن ما إن ترتبط الصعاب بشخص نحبه حتى نستشعر صعوبتها.

اتجه للمسجد بعد سماعه لأذان العصر، دلف للداخل كطفل صغير مجروح، يبحث عن أمه لتبث في روحه السكينة، تذكّر نفسه قبل عدة سنوات، كان يمر بفترة عصبية جداً وكهذه المرة فرّ من فوضى الحياة إلى هدوء المسجد، اقترب منه يوماً شيخ جليل وسأله عن سبب تجهم وجهه وعن الذي يشغل فكره، وبعد أن تحررت الكلمات من رأسه المليء بالضجيج وهو ييوح للشيخ، هداً قليلاً، فأردف الشيخ بصوت متزن لطيف لا ينساه مازن حتى الآن:

يا بني إن الأمر كله لله، وليس لنا من الأمر شيء، سلم أمورك لله، وتوكل عليه حق التوكل، أذهب إلى الله بكل ضعفك وسيأتيك

الله بكل قوته، يا بني إن الذي دبر كل أمورك قبل مجيئك إلى هذا العالم أتركك الآن؟ حاشاه!

تأمل قوله تعالى: {يدبر الأمر}، وكما يقال إنها آية لو سكنت قلبك أسكنته يا بني.

كانت الذكرى واضحة جداً وكأنها حدثت للتو، سبحان الله شعر مازن بأنها رسالة من الله إليه، فأدى الصلاة وعاد للمستشفى بهدوء واطمئنان.

خرج علي من بيت الخالة أم خالد بعد أن روى لها تفاصيل خطوبته لداليا، وما جرى معه خلال اليومين الماضيين، أبدت سعادتها البالغة وفرحتها له، وبادلته المباركات والتهاني طالبة منه أن يحضر داليا معه لتناول الغداء في أحد أيام الأسبوع المقبل، فقد أحبت أن تشاركهما فرحتهما، وتستمتع بمرح الأجواء العائلية التي تفتقدها معهما، فوافق مؤكداً أنه سيتفق مع داليا في تحديد موعد قريب.

تمشى بين أشجار الصنوبر عائداً للبيت، فتح جواله عند وصوله ليفاجئ بسبعة اتصالات من والدته، داهمه القلق، يا ترى ماذا هناك ليستدعي الأمر كل هذه الاتصالات؟!.

فتحت عينيها ببطء، كانت الرؤية مغبشة، ثم بدأت تتضح شيئاً فشيئاً، نظرت لذلك المحلول المعلق بمعصمها، تساءلت: "أين أنا؟"، ثم راحت تمحلق في المكان، كان اللون الأبيض يصبغ كل شيء، نظرت لجانبها فوجدت بدور مستندة برأسها إلى السرير الذي تمتد عليه شفق، بدأت الخواطر تأرجحها أهي في المستشفى بالفعل أم أن هذا حلم؟ ولو سلمت بأن هذه حقيقة، ما الذي حدث لتجد نفسها هنا فجأة؟.

تحركت قليلاً مما نبّه بدور أن هناك حركة، رفعت رأسها لترى إن كانت شفق قد استيقظت أم ليس بعد، ابتسمت بمودة لرؤيتها تنظر إليها، نهضت بتأثر طابعة قبلة ودية على خدها وتحمد الله على سلامتها، ثم خرجت مسرعة لتنادي ابتسام.

كان الجميع في المستشفى قبيل المغرب، ثم ذهب كل من سعد ومازن للعمل بعد أن علموا أن حالتها مستقرة الآن، والسيدة ميساء أخذت أمل وعادت للبيت لتحضر طعام العشاء، كانت متفائلة بأن الأمور ستكون جيدة، وبأن شفق ستعود للمنزل مساء هذا اليوم.

وصل مازن بعد قليل ومعه بعض أزهار النرجس، أردف عند دخوله:

— حمداً لله على سلامة أميرتنا.

واقترب يناولها الأزهار، راحت تستنشق أريجها الفواح، ردت بصوت مبحوح:

— سلمك الله يا مازن، شكراً لك.

— حباً وإكراماً، كيف حالك الآن؟، هل هناك ما يؤلمك؟

— بخير، أشعر بألم في حلقي، وبعض السعال والتعب فقط.

— ستتحسنين قريباً إن شاء الله أخبرني الطبيب، أنه بإمكاننا العودة للمنزل اليوم ولكنك تحتاجين الراحة عدة أيام، وممنوع تناول أي شيء سوى السوائل الخفيفة والمفيدة.

أقبلت حنين مع صينية العصائر وقطع الكيك، وضعتها على الطاولة قائلة:

— أهلاً، أهلاً بالجماليات، نحن من أعدّ هذا الكيك؟

نظرت إيناس لابنة حنين المبتسمة ابتسامة عريضة تشعر بالفخر لأنها ساعدت أمها بإعدادها.

ثم أردفت بحب:

— مؤكد أنها أميرة صحيح؟

أومأت بإيجاب وهي تمدح بعمل ابنتها، ثم قالت:

— هيا تفضلن بالأكل، أين أنتِ شاردة يا داليا؟ أبعدي هذا الهاتف

من بين يديك وتعالى شاركيانا.

— تباً للحب!، لطالما سخرت من قصص المحبين وها أنا ذا ابتلي الآن.

قالت داليا، فضحكت إيناس سائلة:

— ماذا هناك؟

قاطعتهما حنين قائلة لا بنتها:

— خذي قطعة الكيك الخاصة بك واذهبي لتشاركي بابا يا حلوتي،

المسكين يجلس وحيداً.

أطاعت الطفلة كلام أمها وانصرفت.

أكملت حنين:

— لا أحب أن نتحدث بهكذا أمور أمامها، هيا يا داليا أخبرينا ما بك؟

— آه يا حنين، اكتشفت أن الحب صعب، يجعلك تربطين سعادتك

كلها بشخص واحد، إن لم يقل لك صباح الخير لا تشعرين بجمال

الصباح، وإن لم يقل لك تصبحين على خير يطير النوم من جفنيك،

يصبح هذا الشخص بمثابة عينيك اللتين ترين بهما الألوان، وبدونه
يصبح العالم رمادياً باهتاً.

— علي لا يرد عليكِ هذه كل القصة؟!

سألت إيناس، فأجابت داليا:

— راسلته منذ الرابعة، للآن لم يستلم ولم يرد، تخيلي تأخر بالرد خمس
ساعات، أكاد أجن، حتى هاتفه مغلق!.

— ربما في العمل، أو أن بطارية هاتفه فارغة، التمسى له الأعذار يا
داليا.

ردت حنين ثم تابعت:

— هيا لنبدأ لعبتنا المعتادة.

صاحت إيناس:

— أنا من سيسأل أولاً.

وتشرق الشمس كل يوم بتألق وشموخ، تشرق ماحية كل ظلام
الدجى، مبددة كل عتمة، تعلمنا بأن نهض كل يوم بأمل جديد
ونترك يأس الأمس مع الأمس، تعلمنا أن لا نستسلم ففهما طال
الليل سينجلي، ليغمر قلوبنا الصبح من جديد بنوره ودفته وجماله.
كانت عائلة العم سعد تجتمع في الشرفة صباح ذلك اليوم، يتناولون
طعام الإفطار باكراً بين خيوط الشمس، حولهم أصص النباتات
والكاريان يغردان.
سألت شفق:

— لماذا كنت بالمستشفى البارحة، هل فعلت بنفسى شيئاً؟
— سلامة قلبك يا بنتى، تعرضت لحالة تسمم، والحمد لله أن انقضت
على خير.

— ما سببها يا عمى؟ صدقاً أنا لم أفكر بذلك سابقاً، وقد بدأت تحسن
وأسيطر على نفسى، أخبرتنى الطيبة أن حالتي في تحسن ملحوظ في
الآونة الأخيرة.
رد مازن مؤكداً:

— صحيح يا شفق، قالت الطيبة سماح الكلام ذاته البارحة حينما
أتت لتطمئن عليك.

— ما الذي أكلته البارحة؟

سألت ابتسام، فأجابت شفق:

— لا شيء استيقظت أثر الصداع، احتسيت القهوة مع بدور
وذهبت لأجهز نفسي، وعندما انتهيت شعرت بالغثيان والدوار ثم
أظلمت الدنيا من حولي، وفقدت إحساسي بأي شيء.

— قبل البارحة ماذا تناولت خارج المنزل؟

— لا شيء سوى قهوة مع ليان في الجامعة، وكأس عصير عند
الطبيبة.

قالتها ثم انتبهت إلى أن هاتفها يرن، فأخذته وانسحبت للداخل.

تململت داليا في جلستها، والقلق ينهش قلبها، لماذا لم يأتي علي لجلسة
اليوم؟ إنه لم يرد على رسائلها حتى الآن أيضاً، أخرجت هاتفها
وراحت تكتب له:

"صباح الخير يا علي.

أأنت يخير؟ أين أنت؟

صحيح أنني طيبة ولكن قلبي ضعيف جداً حينما يتعلق الأمر
بأحبي، اتصل بي لطفاً يا علي عند رؤيتك للرسالة، قد احترقت
أعصابي بالكامل صدقني.

من تحبك: داليا

رسلتها غير آبهة بأسلوب الترجي الذي استخدمته رغم كرهها
للتحدث به، لا شيء يهم الآن سوى أن تعرف سبب اختفائه،
نهضت بعصبية فاتحة النوافذ والستائر لتجديد هواء الغرفة.

ثم خرجت لغرفة الانتظار، كانت فارغة، اقتربت من مكتب
السكرتيرة لتفتح النافذة، استفزتها الفوضى الطاغية على المكان،
راحت تفرغ طاقتها السلبية بالترتيب لتشغيل نفسها عن التفكير
قليلاً، استرعى انتباهها بقايا ورقة من ظرف ماء، كان شكلها
غريباً، كادت ترميها ثم فكرت لربما هي ذات أهمية أو لها علاقة
بأحد الأدوية فاحتفظت بها بحبيب معطفها.

وصلت سماح للعيادة، فوجدت داليا ترتب المكتبة البسيطة
الموجودة في ركن غرفة الانتظار، التي تحتفظ فيها سماح بالكتب
التي قرأتها خلال رحلتها الدراسية للطب النفسي، سلمت على داليا،

سائلة على حالها وعن سبب ترتيبها هذا، ارتعشت داليا فلم تنتبه لدخول الطيبة، ردت:

—بصراحة، قلقة لست بخير، لم يأتي المريض اليوم.

—ربما هو مشغول لا تقلقي عزيزتي، قد وصلت بإمكانك الانصراف الآن، عليك أن تدرسي وتحضري جيداً يا داليا، ومشكورة على الترتيب.

مضت داليا لإحضار حقيبة يدها للذهاب، ثم توقفت وعادت بخطواتها للطيبة، مدت يدها إليها مردفة:

—بالمناسبة حضرة الطيبة، وجدت هذه أثناء الترتيب، كنت سأرميها ولكن قلت لربما تهلك.

أمسكتها سماح بين أناملها، تنظر إليها بتمعن، تابعت داليا: —استأذن الآن.

—مهلاً، أين وجدتها يا داليا؟

—على مكتب السكرتيرة بين الأغراض.

شردت سماح في أفكارها، لم تفهم داليا سبب ردة فعلها هذه، لكنها لم تسأل مضت في طريقها، فهي لا ينقصها المزيد من الأشياء التي تتطلب التفكير، حرب أفكارها الحالية تكفيها.

لقد قررت أن تهوّر وتذهب لمكان سكنه في الريف، وليحدث ما سيحدث، ارتفع رنين هاتفها وكأنه يصيح، أخرجته بسرعة لترى من المتصل لعله يكون علي، لكنها كانت إيناس.
— مرحباً داليا، ما رأيك أن تأتي ونذهب معاً للمكتبة.
— أنا في محطة القطار الآن، لندعها ليوم آخر.
— ماذا تفعلين هناك؟

— سأذهب لبيت الخالة أم خالد لربما تعرف شيئاً عن علي.
— داليا، لا تفقدي عقلك أرجوك، لا ترمي بنفسك هكذا على الرجل.

— نار القلق تحرقني ولا أريد سوى إطفاءها الآن، وداعاً.
أغلقت الهاتف، وذهبت لتحجز مقعد لها في أقرب رحلة للريف.

كانت شفق جالسة على الأريكة قرب المدفأة، بفستانها الأخضر السميك ولجانها كأس من الشاي بالنعناع، منكبّة على قراءة كتاب قد استعارته من مازن صباحاً، عدلت جلستها فوقعت ورقة من الكتاب على حين غرة، التقطتها شفق وراحت تقرأها، كان نصاً لطيفاً بخط مازن وكلماته، وعلى الطرف الآخر منها مكتوب قصيدة.

راحت تفكر في جمال الكلمات، تتساءل أيعقل أن يكون لمازن قصة ما، حتى كتب هذه الكلمات؟!، لمعت في رأسها فكرة، نهضت متجهة لغرفة بدور، دقت الباب بهدوء ثم دلفت للداخل:

—لديك بعض الوقت يا بدور؟

—بلى، تعبت تعالي لأرتاح قليلاً، أخبريني هل أعجبك الكتاب؟

—كثيراً، تعالي لأريك ماذا وجدت داخله.

اقتربت من مكتب بدور، وأخرجت الورقة تناولها إياها، قرأتها الأخرى وقالت بعد إنهاء آخر بيت من القصيدة:

—آه، لو كانت القصائد التي أدرسها شاعرية هكذا، لكنت حفظتها حال قراءتها.

ضحكاً معاً، أردفت شفق تضيق عينها:

—أشعر بأن مازن لديه قصة ما يخفيها، ما رأيك يا بدور؟ أتذكرين يوم

طلبت دفتره، كان حريصاً على ألا يريني ما يحتويه!

—على الرغم من أنه لا شأن لنا بأموره الخاصة، إلا أنني أفكر بذات الأمر يا شفق.

— كيف سنجعله يحكي لنا قصته؟

— نحن الفتيات فضولنا سيذهب بنا للبحيم، نعشق كشف الأسرار،
سننتظر أن نلعب معه لعبة الصراحة، ضعي بين قوسين (لعبة
الفضائح)، بتأكيد سنجعله يروح بكل شيء وقتها.

أنهت إيناس ترتيب العيادة، خلعت مريولها، وبدأت تجهز نفسها
للانصراف، فُتِحَ باب العيادة بهدوء، استدارت إيناس فرأت داليا
تقف بوجوم عند الباب، لاحظت دموعها المتمسكة بأهدابها حتى
لا تملأ وجنتيها، اقتربت إيناس منها:

— ما لك يا فتاة، أنت شاحبة ألم تأكلي بعد؟

— لا شهية لي، اسمعي يا إيناس تبقى لي أمل أخير، لم أجد علي لا
في منزل أم خالد ولا في منزله، تبقى أن نذهب لمكان عمله، سمعت
أنه يعمل في مطعم اللقمة الطيبة، رافقيني هناك لطفاً.

— بشرط.

— ما هو.

— أن تأكلي عند عودتنا.

اومأت برأسها وزهبتا معاً في سيارة إيناس، كانت رائحة الطعام
ساحرة تستفز شهيتك لتجوع مباشرة، كان أساسه شعبي بسيط،

دلفتا للداخل، وتوجهتا إلى مدير المطعم يسألانه عن علي، وقد كررت إيناس كلمة ضروري عدة مرات أثناء كلامها.
فأجاب العم الطيب:

— مع الأسف أنه لم يأتي للعمل، حتى أنه لم يحضر للدوام المسائي ليلة البارحة، ولا يجيب على الاتصالات بتاتاً.

هناك صديق له في الداخل أخبرني بأنه لا يعرف أي شيء عن غيابه المفاجئ هذا، سأستدعيه لتحدثاه.

بعد قليل أطلّ شابٌ طويل القامة ذا شعر بني أجعد، يرتدي مريولاً أبيض اللون، ما إن رفع عينيه وألقت عيناه بعيني إيناس، حتى رفعاً حاجباهما معاً وابتسما، مما أثار استغراب داليا الغاضبة فنكرت إيناس بطرف يدها لتتحدث.

— أهلاً بكما، أنرتما المطعم.

قالها وهو لا يفهم ما سبب تواجدهما معاً، ردت إيناس:

— شكراً لك، بصراحة جئنا نسأل عن علي، هل رأيته اليوم أو تحدثت إليه أ. منير؟

— أنتِ الآنسة داليا التي صدع علي رأسي من تكرار اسمها؟ تشرفنا بك، عندنا أطعمة ممتازة هنا.

قال منير بعد انتباهه لداليا، فلاحظ انزعاجها الواضح، فتابع بجدية:
— لا لم أره منذ يومين، أنا أيضاً قلقٌ عليه، لكن هاتفه مقفل منذ
البارحة.

تحركت داليا ببرود وخرجت من المكان تاركة إيناس التي ارتبكت
من موقفها الغريب تفكر في ردة فعلها، سألت مجدداً:

— صدقاً أ. منير ألا تعرف عنه أي شيء؟

— لأختنق بقطعة فلافل لو كنت كاذباً بحرف واحد، حرفياً قد
اختفى بغتة.

كتمت ضحكتها من قسمه العجيب، اعتذرت للإزعاج، وهمت
بالخروج مسرعة لتلحق بداليا، بحثت عنها في الشوارع المجاورة فلم
تجدها، عاودت الاتصال أكثر من مرة بها لكنها لا تجيب، هتفت
بحنق:

— أف، كنا في اختفاء علي، صرنا في اختفاء علي وداليا، أنا رفضت
تربية أجمل قطعة كي لا تضيع وأبحث عنها، الآن يتحتم علي أن أبحث
عن بشر عقلاء وسط الشوارع، وماذا في فصل الشتاء! يا رباه أكاد
أفقد عقلي.

عادت المكان الذي ركنت فيه سيارتها بعد أن فشلت محاولات البحث، واتجهت لبيت داليا، الجيد في الأمر أنها تملك نسخة احتياطية للمفتاح، دلفت للداخل فوجدت داليا في الغرفة جالسة على الأرضية، تستند برأسها على الأريكة وتبكي بشجن، اقتربت منها بتؤدة جثت على ركبتها، حاولت إبعاد بعض الخصلات عن وجه داليا الباكي مردفة:

— اهدئي غاليتي، كفى بكاء.

— اختفي يا إيناس، تلاشي علي من كل هذا العالم.

قالت وسط بكاءها بصوت متحشرج، فردت الأخرى:

— لا يمكن للأرض أن تبتلعه بالتأكيد، سيعود لا تدري ماهي ظروفه الآن.

— منحني الكثير من الحب ثم اختفي، كيف لقلب محب أن يحتمل الفراق؟!.

— داليا ستموتين لو تابعت البكاء على هذا النحو، انظري لنفسك تبدين

كمومياء خرجت من قبرها للتو، هيا انهضي واغسلي وجهك.

— تخيلي أنه مات!.

قالتها وغرقت في نوبة البكاء.

— كفاكِ تصوراً للكوايس وانهضي.

— دعيني وشأني.

كانت إيناس تقف حائرة، لا تدري ما الذي عليها فعلة، ولا تفهم
كيف حدث ما حدث، أيعقل أن يختفي شابٌ طول بعرض
هكذا؟!!

"أينما استوجب عليك وضع النقطة ضعها ولا تتردد،
الفواصل غالباً متعبة."
لقائله

كانت شفق قد انتهت من تجهيز نفسها، وجلست تجدل شعر أمل،
خرج مازن من غرفته، أردف باستغراب عند رؤيتها:
_ستداومين؟

_نعم، بالطبع، غبت ثلاثة أيام يكفي، أنا بخير الآن، علي تعويض
ما فاتني.

_لكنك تحتاجين للراحة

_سأكون مرتاحة هكذا لا تشغل بالك بي.

أقبلت بدور قائلة:

_حلمتُ بأنني أتناول رغيفاً من الخبز بالزعر الأخضر، فاستيقظت
أموت جوعاً، أريد أن آكل وأكمل نومتي، لا تأخذوني للدوام.
رد مازن:

_كفاك تدمراً ككل صباح، سنأكل في طريقنا، إما أن تنهضي
لتتحقي أحلامك، أو أن تنامي وتحلمي بها فحسب.

ما إن خطت شفق بضع خطوات نحو الجامعة حتى أقبلت ليان

تعانقها بشوقٍ كبيرٍ مردفةً بنبرةٍ حنونة:

—الآن أستطيع أن أقول أنه صباح الخير، فالخير قد أتى أخيراً.

—غاليتي يا ليان، وأنا اشتقت إليك كثيراً.

كانت كل منهما لديها الكثير من الكلمات والأحاديث لتقولها

للأخرى، فتحدثان معاً بعشوائيةٍ وتدخلان كل المواضيع مع بعضها

وتضحكان.

شردت ليان وكأنها قد تذكرت شيئاً ثم قالت:

—نحني من جاء البارحة للكلية؟ بالمناسبة كان يبدو وكأنه يبحث

عنا.

—من؟ أمير الأمراء؟

قالتها بسخرية ثم بُرت ضحكتها حين لمحت براء من بعيد يتجه نحوهما.

استطردت ليان:

—سبحان الله، ما إن نذكره حتى يظهر.

عندها فهمت شفق أن براء هو المقصود بداية الحديث.

استيقظت إيناس ناهضة بثاقل، لم تجد داليا نائمة في الغرفة كالعادة، غريب!

ما الذي جعلها تستيقظ اليوم مبكراً، منذ ذلك اليوم الذي اختفى فيه علي، وهي لا تأكل ولا تتحدث إلا نادراً، وتلتزم السرير طوال الوقت، لم تستطع إيناس تركها وحدها وبقيت بجوارها طوال الثلاث ليال السابقة، محاولة جعلها تتجاوز ذلك وتصبح مكملة حياتها، لكنها لم تستجب لها بتاتاً، متعلقة أن رحيل علي يعني توقف حياتها، فمشروع التخرج ذهب أدراج الرياح، ولا تستطيع مواجهة أهلها وأقاربها إن سألت: "أين خاطبك؟"، بماذا ستجيب، "عفواً يا سادة لكنه تلاشى!"

يوجعها أنها لا تعرف سبب غيابه المفاجئ، ولا إن كان مع الأحياء أو الأموات، لطالما كرهت الروايات ذات النهايات المفتوحة، وما إن بدأت قصة حبها المنتظرة، حتى انتهت نهاية مفتوحة ومجهولة!.

بحث إيناس عن داليا فوجدتها تأخذ حماماً، بدلت ملابسها وشرعت بإعداد القهوة، انتهت داليا وأقبلت لتشارك إيناس في احتساء القهوة.

— صباح الخير، الحمد لله تبدين بخير اليوم.
ابتسمت الأخرى ببرود مردفة:
— تلقيت البارحة رسالة قبل النوم.
— رسالة ماذا وممن؟
— لا أدري من المرسل، انظري.
ناولتها الهاتف، راحت إيناس تقرأها، وكان مفادها:
"وقتاً طيباً د. داليا.
أريد رؤيتك عند الجامعة بعد الظهر، هناك رسالة لك من شخص
ما"
صمتت بوجوم ثم قالت:
— لم يرتح قلبي لهذه الرسالة، لا تذهبي يا داليا.
— مستحيل، أنها ومضة أمل، عساها تكون من علي.
— إذن، خذيني معك.

ألقي براء التحية وتابع كلامه:
— كيف حالك يا شفق؟ أتيت إلى هنا يومين متتاليين ولم أجدك،
عساها خيراً؟

هكذا هو لا يعرف كيف يتخذ قراراً واضحاً وشجاعاً، دائماً ما يبقى الباب موراباً، فلا يفتحه بصدق ليرحب بها في حياته كيفما كانت، ولا هو يغلقه لينساها ويرتاح.

— الحمد لله، كل شيء بخير.

ردت عليه بعجلة، وأمسكت بكف ليان وشدتها ليمشياً.
استوقفها قائلاً:

— مهلاً يا شفق، هل بإمكاننا التحدث قليلاً.

— لطفاً يا براء أن تطوي صفحة الماضي التي جمعنا وتنساها.

— لا بأس سنطوي الصفحة القديمة، ولكنني أريد فرصة جديدة معك في صفحة حياتي القادمة.
— آسفة.

صمت لبرهة ثم تابعت:

— لا فائدة من تكرار الفرص، واضحٌ أنه لا يمكننا أن نكمل معاً.

— ولكن

— صدقني لا فائدة.

— حظاً موفقاً في حياتك القادمة.

قالها ومضى في طريقه بانزعاج، ردت شفق بخفوت:

— وحظاً موفقاً لك.

نكرتها ليان مردفة:

— كنت صارمة يا شفق، لم تعطيه مجالاً للتحدث.

— عليه أن يحتمل نتائج قراراته، يظن أن ما فعله كان هيناً علي، أنا

لست لعبة يرميها ثم يعود ليأخذها وقتما شاء، قد اكتفيت من

إعطاء الفرص، علينا أحياناً أن نضع نقطة في آخر السطر والسلام.

كأنّك ..
جزءٌ من الطبيعة
كأنّك ..
كلّما شعرتِ بالحزنِ
بَكَتِ "من أجلكِ" السماء..

لقائلها.

بعد الظهر كانت السماء ملبدة بكثير من الغيوم، أقبلت فتاة
متوسطة الطول نحو داليا وإيناس، ترتدي طقمًا رسميًا، مع حجاب
أبيض عادي الشكل، قالت وهي تمد يدها نحو داليا:
-مرحباً، أنت داليا صحيح؟
صاغت داليا مؤكدة، نظرت لإيناس بابتسامة كنوع من السلام،
سألت داليا:
-ممن الرسالة التي ستسلمينها لي؟
-تفضلي هذه هي الرسالة، أوصاني علي..
-علي بخير؟

قاطعتها داليا، فتابعت:

— نعم بخير، وقد أوصاني قبل سفره بإعطائك إياها، كان سيرسلها إلكترونياً، ولكنه شعر بأنها طريقة باردة.

ابتعلت غصتها عند سماع كلمة "سفره"، أهانت عليه هذه الدرجة حتى يرحل بدون أن يخبرها؟!، تركها لنيران أفكارها وهواجسها التي تتآكلها ثلاثة أيام، ثم يوصل لها رسالة مع فتاة ما، والأدهى والأمر أنه يعتبر بأن طريقته هذه ليست باردة ومناسبة؟!!

تجمّدت في مكانها غير مستوعبة ما سمعته للتو، تسلمت المغلف بأنامل ترتعش، تحدث الفتاة ببعض الكلمات ثم ودعتها وانصرفت، لكن داليا لم تفقه شيئاً ممّ قالته.

بدأت تمطر، راحت الناس تتراكم بحثاً عن مكان يقيها من الماء، أمسكت إيناس بمعصم داليا وجرتها معها نحو السيارة سريعاً قبل أن تبتلا، أردفت إيناس بعد أن شرعت بالقيادة:

— اهدئي يا داليا، ألن تفتحي الرسالة؟

كانت الأخرى تتأمل حبات المطر المتسارعة، تشعر بأن السماء على اتساعها حزينة لأجلها، على اتساعها تحتضن روحها الواهنة، وتشاطر قلبها المكسور في الدموع والبكاء.

أعادت إيناس سؤالها، فردت داليا بصوت متهدج:
_ ما قيمة الاعتذارات التي سأقرأها بعد أرقٍ بكاءٍ لثلاث ليالٍ
متواصلات، خوفاً عليه؟! لم يقدر محبتي ولم يعبئ بقلبي حين رحل
بتلك الطريقة، تاركاً إياي وحيدة، أصارع ألف سؤال بلا إجابة،
وجميع الاسئلة تنبض بالقلق عليه، بينما كان عليّ أن أقلق على
نفسي في ذلك الحين، بعد كل ذلك ألا يحق لي أن أمزق هذه
الرسالة وأنثرها تحت دموع السماء دون قراءة ما فيها؟!
كانت تتكلم بوجع وهي تقلّب المغلف بين يديها، اختطفته إيناس
منها مخبأة إياه في جيب معطفها، تعرف بأن داليا الآن في حالة
صدمة وستندم بالتأكيد إن فعلت ما تهذي به الآن.

في ركنٍ ما من هذا العالم، كان محبوساً في غرفة ضيقة، ومقفلة من
الخارج، حيطانها متهالكة، تفوح منها رائحة الرطوبة، معتمة بفعل
الجو الغائم تحتوي على كرة صغيرة في أعلاها، يدلف منها ضوء
الشمس، ولكن حتى ضوء الشمس توارى واختفى هذا اليوم، لا
شيء يستطيع فعله الآن سوى اجترار الذكريات، كان هاتفه قد
سُحب منه وتم رميه في مكان ما، يتذكر كيف خرج منذ بضعة أيام

ليجري اتصالاً مع والدته فتم القبض عليه وجره إلى هنا بوابل من الشتاء من قبل بعض الرجال، لا يُصدق بأن داليا هي التي تعاونت معهم ليقبضوا عليه مقابل أجرٍ من المال، لم يكن يدري بأنه رخيصةً عندها لهذه الدرجة، لا يفهم كيف كانت داليا بلسماً لجروحه والآن باتت جرحه الأكبر!

بعد انتهاء الجلسة، راحت شفق تسأل عن سبب ذهاب الطيبة إلى قسم الشرطة، فأجابت:

—بصراحة يا شفق توصلت لشيء فظيع، عديني أن يبقَ سراً بيننا. أومأت شفق فتابعَت سماح:

—للأسف يا شفق أنك قد تسممتِ هنا في العيادة، ألا ترين أن السكرتيرة غائبة منذ يومين، إنها في النظارة عند الشرطة، اعترفت بأن هناك فتاة عرضت عليها المال مقابل أن تدعي بأنها مريضة، وأن ابنة خالها ستأتي للعمل بدلاً منها في ذلك اليوم، وقد فعلت دون أن تدرك حجم المشكلة، وتلك التي حالت مكانها هي من وضعت السم في العصير الذي شربته عندي، وقد وجدنا آثار السم في الكأس الذي عندي.

كانت شفق تستمع مشدوهة، سألت بعد برهة من الصمت:

—ولماذا؟ ما مصلحتها؟.

—لأن لا ندري يا شفق ما دوافعها، ولكن الشرطة تبحث عنها في كل مكان.

—أرجو أن يتم القبض عليها قريباً، استأذن الآن حضرة الطيبة.

—رافقتك السلامة، لا تنسي مهمة اليوم يا شفق.

—حاضر.

في المساء كان مازن يدرس بدور ويشرح لها بعض المسائل

الحسابية، سألها بعد طول شرح:

—فهمتي يا حلوتي؟

هزت رأسها نفيًا، فضحك قائلاً:

—سأعيد ركزي معي جيداً.

كانت تغبط مازن على الحلم وطولة الباب التي يتمتع بها، بحيث

يحتمل الكثير بوجهٍ باسم، هتفت وكأنها تذكرت شيئاً:

—مهلاً يا مازن، لدي خبرٌ لك.

—علينا أن ندرس يا فتاة.

— ستندم أن لم تعرفه.

أوماً باستسلام لها لتتحدث، قالت بعيونٍ لامعة:

— وجدت شفق نصاً من كتابتك إضافة إلى قصيدة داخل كتابك.

— وماذا في ذلك؟

— أتت إلي وأخبرتني بأنها تشك في أن لديك قصة ما، كانت تبدو

مهمة.

— قصة ماذا؟

— لم أرَ كغباؤك يا أخي، قصة ليلي والذئب، قال قصة ماذا قال!

قصة فتاة قد سرقت قلبك.

رفع حاجباه تعجباً:

— شفق؟

— نعم لكنها لم تكتشف بأنها المقصودة في كل تلك العبارات.

دقت شفق الباب ثم دلفت وبين يديها صينية تحوي كأسين من

عصير البرتقال، مردفة بنبرة دافئة:

— مساء الخير، تفضلاً لقد عصرته بنفسي، وفقكما الله وقواكما.

قالتا بعد أن وضعت الصينية ثم خرجت.

عاد مازن لإمسك القلم والدقتر:

— هيا لنتابع.

— وماذا بشأن ما أخبرتك به يا مازن؟ ألن تثبت لها بطريقة ما أنها المقصودة.

— بدور حبيبتى ركزي في دروسك، أريدها أن تستكشف ذلك بنفسها.

دلفت شفق لغرفتها بصحبة كوب من العصير وضعتها على المنضدة، وراحت تبحث عن الرسائل التي كتبتها لوالدتها سابقاً وعن التي كتبتها للطبيبة، كان عليها أن تقرأها هذه المرة باتزان وتفحصها لترى ماهي المشكلات التي كانت تعانيها وقتها، وتكتب الآن كيف عاجلت أو تجاوزت بعضها، وما الأمور التي قد تم تقبلها وانتهائها عن الرسائل التي كتبتها لوالدتها سابقاً وعن التي كتبتها للطبيبة، كان عليها أن تقرأها هذه المرة باتزان وتفحصها لترى ماهي المشكلات التي كانت تُعانيها وقتها، وتكتب الآن كيف عاجلت أو تجاوزت بعضها، وما الأمور التي قد تم تقبلها وانتهائها، وما الأخرى التي لا تزال ترافقها للآن مسببة الألم، كانت مهمة صعبة

عليها، ولكن رحلة العلاج تحتاج تعب، أخرجت رزمة من الأوراق من الدرج، وضعتها بجانب العصير، ثم أخرجت دفترها الأصفر الصغير الذي تدون عليه ملاحظات الطيبة ونصائحها، وبعض العبارات الجميلة التي تدفعها للمضي قدماً ولتذكر وتتأمل رحمة الله الخالق، قرأت بعضاً منها، هي بالفعل تشعر بأنها قد تحسنت، وبعض العبارات الجميلة التي تدفعها للمضي قدماً ولتذكر وتتأمل رحمة الله الخالق، قرأت بعضاً منها، وقطعت على نفسها وعداً بأن تكون شجاعة حتى نهاية العلاج، أمسكت إحداها وراحت تغوص في السطور والكلمات.

"تنص القاعدة دائماً على أنه لا يوجد خسارة إلا خسارة الذات،
وأن خسارة كل شيء من أجل ذاتك تُعد انتصاراً لا هزيمة."

لقائله.

"طق.. طق.." تكررت الطقات مرة مرتين ثلاث، ثم أصدر الباب
صريراً مزعجاً يوحي بوصول أحدٍ ما، تنبّهت كل حواس علي، أخذ
يُحلق في الظلام، مستعيناً بالله من ظلمة أنفسهم، تقدم شخصاً ما
يمشي بتؤدة ويوجه ضوء هاتفه على علي مردفاً، بعد أن أمسك بكفه
يساعده على النهوض:

— بسرعة يا علي، والدك ينتظرنا.

أغلق الباب معيداً قفله بإحكام كما كان وانطلق معه للسيارة، بينما
تحتل المفاجأة قسمات وجه علي، كان يظن أن والده وراء
اختطافه ولكن طالما والده الذي أتى لينقذه من كان وراء ما
حدث إذن؟!

جلس علي جوار والده في المقعد الخلفي، تنح عمر قائلاً بعد قليل وهو يربت على كتف ابنه: علي كتف ابنه:

— اسمع يا بني، أنا لم أكن أقصد أيّاً مما قد مررت به، عند رحيلك مع آسيا من المزرعة، آلمني قلبي وقررت ترك العمل مع تلك العصابة التي تعمل بتهريب الممنوعات بجميع أنواعها، حينما جربت الوحدة أدركت خطأي وبأنني سأدمر بيتاً كاملاً، أرسلت رجالي في عملية بحث عنك، لكن رجال العصابة هددوني بك لو تركتهم، ومع الأسف كانوا أسرع مني في العثور عليك، فتسببوا لك بذلك الحادث، ومن ثم اختفيت أنت مجدداً، تراجعت عن قراري بترك العمل عندهم لأجل حمايتك، كنت أريد منكما العودة لمزرعتنا لأطمئن عليكما، رغم كل المتاعب والمشاكل التي افتعلتها إلا أنه يستحيل علي أن أؤذيكَ صدقي يا بني.

تصالح مع أمك منذ عدة أيام وطلبت منها الإسراع في إجراءات سفرك عندها لتكون بمأمن هناك، إنهم يحاولون بشقّ الوسائل التخلص منك أو استخدامك كرهينة لأفعل ما يطلبون مني، لذلك جهزت لك كل أوراقك لتسافر ليتما أنني بقايا معاركي هنا ثم سيستم شملنا من جديد.

ذهبا للبيت تناولا الطعام معاً وفتح كل منهما قلبه للآخر، ثم ناوله أوراقه اللازمة وجواز سفره لينطلق مسافراً مع ساعات الفجر الأولى.

— صباح الخير، إلى أين أنتِ ذاهبة؟
— صباح الخير، شعرت بأن العالم كله ينادني لأنهنض مع الصبح واستعيد إشراقي.
عادت لإكمال لف الحجاب وتابعت:
— سأذهب للجامعة، ومن ثم إلى الطيبة سماح، جزاها الله خيراً لم تتركني طوال الأيام السابقة، وهي تقدم لي الدعم وتأخذ بيدي لأستطيع تجاوز تلك الصدمة.
مررت إيناس يدها على جبينها ذهاباً وإياباً، ونظرت لداليا قائلة وهي تحاول إبداء غيرتها:
— ووجودي لجانبك وقد فارقتِ بيتي وغرفتي وطهو أمي على مدار أسبوع كامل، ألم يؤثر فيك، أن أم وجودي وعدمه سواء؟!!

وضعت داليا آخر دبوس، ثم اقتربت من إيناس طابغةً قبله على
خدها مردفة:

— وكيف لا يؤثر فيني دفئك وحنانك وأنا في تلك الحالة الصعبة
كيف؟! هذا شيء مؤكد لذلك لم أقله، وإني لا أجد طريقة مناسبة
لشكرك يا أنيسة أيامي.

لولا الأيدي المحبة التي تأخذ بأيدينا عند التعب والسقوط، لما نهضنا
من جديد، نحن مدينون بالشكر لكل من تتحمل حالنا السيء، موقناً
بأننا أفضل من ذلك بكثير، مُذكراً إيانا بصفاتنا الحسنة الجميلة.

عرفت داليا بأن عليها إعطاء الحزن وقته وحقه حتى يمضي ومع
ذلك عليها ألا تجعله يطول ويستولي عليها، لقد مرّت بمراحل الحزن
الخمس التي حفظتها ورددتها سابقاً (الإنكار، الغضب، المساومة،
الاكتئاب، التقبل)، ففي البداية أنكرت اختفائه ولم تصدّقه، ثم
غضبت لأنه رحل بتلك الطريقة، ومن فرط حبها تمت أن يعود
مقابل أي شيء، ستصفح عنه وكأن شيئاً لم يكن، لكنها أدركت
أنه رحل بالفعل، عندها أصيبت بفترة كآبة، لازمت السرير
طوال الوقت، وشعرت بانعدام قيمة الأشياء وجدواها، كانت أياماً
صعبة، ثم أدركت بأنه لا بدّ من التقبل، لن يكون باستطاعتها تغيير

أي شيء، وما حدث قد حدث، المستقبل أمامها وما كان سيبقى درساً، والحياة لا تتوقف على أي حال، لا يجب علينا أن نربط سعادتنا بأحد أو بشيء محدد، السعادة هي هبة من الله ودائماً يعوضنا الله بما هو خير ويجبر قلوبنا، وهي تنتظر ذلك أن يجبر الله قلبها بمن يستحقه.

هذه المرة تعلمت داليا كيف تداوي نفسها عوضاً عن غيرها، فهمت أن الأمر يحتاج شجاعة كبيرة لمتابعة الحياة وفهمها، يحتاج الأمر شجاعة حتى تبعد اليأس وتحلّي بالتفاؤل، ويحتاج الكثير والكثير من الاستعانة بالله لتقدر على تخطي ما مضى بقلبٍ شغوف سليم، قد تتطلب مراحل الحزن الخمس سنوات حتى تمضي كلها وتنتهي، كل شخص حسب جرحه وشخصيته، لكن داليا بطبيعة الحال كانت إنسانة إيجابية باسمة، فلم تسمح لتلك الفترة بأن تطول، وأعلنت عودة ابتسامتها البريئة من جديد.

كان منير في طريقه للعمل عندما رن هاتفه عدة مرات، تجاهل عمداً في البداية ثم أخرجه من جيبه ليرى من ذلك المزجج، الذي أفسد عليه تأمل السماء والاستمتاع بساعات الصباح الأولى.

كان رقماً غريباً، فتح الخط وألقى التحية، فوجئ بسماع صوت صاحب المكالمة، سأل بنبرة تحمل الشوق الحار: - كيف حالك يا علي؟ أين أنت؟

- بخير يا صديق، صحت اليوم مشتاقاً لكل شيء، أحن إليك وإلى ساعات العمل المجهدة، والسهر المليء بتناول الطعام وتبادل القصص والحكايات نحو الماضي والمستقبل.

- لو تعلم مدى كآبة العمل والليل والطعام بدون رفقتك، حتى أقراص الفلافل باتت كثيبة في رحيلك، أين اختفيت يا رجل؟ - إنها قصة طويلة، طويلة جداً يا منير، سنتحدث مساءً لأخبرك بكل شيء، لنسهر مثل الأيام الخوالي ولكن بشكل إلكتروني. - حسناً، اتفقنا متشوق لذلك، صحيح لا تنس أن تكلم مخطوبتك، كانت في حالة يرثى لها يوم اختفاءك.

- داليا؟

- وهل لديك أكثر من مخطوبة مثلاً، طبعاً هي، كانت منهارة بالكامل يوم أتت مطعمنا تسألني عنك. صمت علي تماماً، إذ لم يستوعب ما سمعه للتو، تابع منير: - استأذنتك الآن، أكاد أصل للعمل.

—رافقتك السلامة.

أغلق علي الخط، وأغمض عينيه مسترجعاً ذكريات يوم اختطافه، وكيف كانوا يتحدثون عن تسديد المبلغ للفتاة التي ساعدتهم في الوصول إليه، حينها سألهم عن تلك الفتاة، فكُسر قلبه وتناثر لرؤية صورة داليا بين أيديهم، باتت ذكرياته معها كالزجاج تجرحه كلما مرت بخاطره، والأقسى أنها لا تغيب!

يفكر الآن، لماذا انهارت وبكت ذلك اليوم بعد أن فعلت ما فعلته؟! كان يشعر بأن هناك جزء من الصورة مفقود، جزء لا يمكن فهم ما جرى لو لم يتم العثور عليه.

"ولكن أيكفي أن نحب شيئاً ليصير لنا؟"

- مي زيادة

تململت داليا في جلستها وهي تنتظر المريضة التي أخبرتها سماح بأنها ستُشرف على حالتها من الآن فصاعداً، كانت سعيدة بعودتها للعمل، حملت هاتفها ودلفت لتطبيق الفيسبوك لتبحث عن صفحة المريضة التي لا تعرف سوى اسمها والقليل عن حالتها للآن، إن الناس تبدو شفافة أحياناً من وراء الشاشة، بإمكانك فهم شعورهم وطريقة تفكيرهم من خلال منشوراتهم والصفحات التي يتابعونها، بينما قد لا تكتشف ذلك ولو جلست معهم ساعة كاملة، بالصدفة رأيت حساب علي ثابتٌ هناك في سجل البحث، شعرت بنخزة في فؤادها، بدا الوقت وكأنه قد توقف لهنية من الزمن، لم تستطع كبح جماح فضولها كالعادة، وضغطت للدخول إلى الصفحة المهجورة منذ مدة، لم يكن هناك سوى منشورٍ واحد منذ يومين، كانت قصيدة لفاروق جويدة.

راحت داليا تقرأها وتكررها:

"بقايا.. بقايا

لماذا أراك على كل شيء بقايا.. بقايا؟

إذا جاءني الليل ألقاك طيفاً..

وينساب عطرك بين الحنايا؟

لماذا أراك على كل وجه

فأجري إليك.. وتأبى خطايا؟

وكم كنت أهرب كي لا أراك

فألقاك نبضا سرى في دمايا

فكيف النجوم هوت في التراب

وكيف العبير غدا.. كالشظايا؟

عيونك كانت لعمرى صلاة..

فكيف الصلاة غدت.. كالخطايا..

* * *

لماذا أراك وملء عيوني

دموع الوداع؟

لماذا أراك وقد صرت شيئاً

بعيدا.. بعيدا..

تواري.. وضاع؟

تطوفين في العمر مثل الشعاع

أحسك نبضا

وألثاك دفئا

وأشعر بعدك.. أني الضياع

* * *

إذا ما بكيتُ أراك ابتسامة

وإن ضاق دربي أراك السلامة

وإن لاح في الأفق ليل طويل

تضيء عيونك.. خلف الغمامة

* * *

لماذا أراك على كل شيء

كأنك في الأرضِ كل البشر

كأنك دربٌ بغير انتهاء

وأنني خلقت لهذا السفر..

إذا كنت أهرب منك.. إليك

فقلولي بربك.. أين المفر؟!"

ندت من عينيها دمعة، سارعت لمسحها، شعرت بالألم، وجدت نفسها بين السطور وكأن الكلمات تصف حالتها، ولكن أيعقل أنه يقصدها؟ ماذا فعلت معه لتكون ذكراها شجيرة بالحب والحزن هكذا معاً، أليس هو من تخطى عنها؟! قاطع أفكارها صوت طرقات الباب، فأغلقت الهاتف، واستقبلت المريضة بلطف وبوجه ذا ابتسامة مصطنعة جاهدت لرسمها على شفتيها.

— أخيراً أتيت.

— آسفٌ لتأخري، كيف حالك؟

جلست شفق في المقعد الخلفي، نحت حقيبتها جانباً، أغلقت النافذة، أردفت:

— كان يوماً شاقاً جداً، الحمد لله بخير، لكنني جائعة، ياه الجوزداد
برودة قبيل الغروب.

نزع لفحته عن عنقه واستدار يناولها إياها قائلاً:
— ضعيفا، ستمنحك بعض الدفء.

— لا يا مازن، ستبرد دعها أنا بخير، ثم إن حجابي يعمل عمل اللفحة،
لا تقلق.

رماها نحوها واستدار ليشرع في القيادة سألها:

— متى جلستك عند الطيبة؟

— بعد ساعة تقريباً.

أجابته وهي تلفها حول رقبتها.

— إذن لن نعود للبيت.

رفعت حاجباها استغراباً من قوله، فتابع:

— عندنا ضيوف في البيت، لن تأخذي راحتك، ثم هل ستعودين
لتخرجين بعد ساعة؟! ليس جيداً بالطبع، أخبريني الآن ماذا تحبين
أن نأكل؟.

ابتسمت مفكرة:

— أي شيء، أكاد أموت جوعاً.

صف مازن السيارة في ركن ما، ثم نزل ليشتري الطعام، حنت شفق رأسها على كتفها، مستمدة الدفء من لفحة مازن فتسللت إليها رائحة عطره، أحست وكأنها تستند إلى كتفه هو، خالجهما شعورٌ غريب فأغمضت عينيها جاهلة إذا كان سبب الإغماض هو لجعل ذلك الشعور يدوم، أو لجعله ينتهي!

عاد مازن معه قرص من البيتزا وبعض من البطاطا المقلية واتجه لمنطقة مرتفعة، بإمكانهما رؤية البحر من هناك، سألها:

— نخرج أم نأكل هنا ونفتح النوافذ لرؤية البحر؟.

— بالطبع سأخرج، هيا بنا.

كانت بسمتها ملاً وجهها، تأملت غروب الشمس فوق البحر، تأملت جمال الشفق الأحمر وهو يرسم أعلى الأفق ويضيف ألوانه الدافئة بلطف للون برودة السماء، كان المشهد ساحراً، أعجبت شفق بهذه المفاجأة الجميلة وملأت قلبها السكينة، أردفت:

— لم أر في حياتي كهذا الجمال الأخاذ!

— بالفعل، مهما رأيت جمال الشفق وسحره، ستشعرين بأنك ترينه
للمرة الأولى في كل مرة، بحيث تتأملينه بشغف وحب بلا كللٍ أو
ملل.

كان يقصدها هي بالمرتبة الأولى، لكنها لم تنتبه لذلك وظنت بأنه
بالفعل يتحدث عن المشهد، لأنها كانت مأخوذة به تماماً.
أردفت بعد قليل وهي تتناول قسمة من قطعة البيتزا:
— هل أخبرك شيئاً يا مازن؟
— تفضلي.

— نجحت اليوم في اختبار صعب وبتقدير ممتاز! أشعر وكأنني احتفل
بذلك.

ابتسمت وتابعت:

— شكراً لك يا مازن.

رد قائلاً بحفاوة:

— حباً وإكراماً يا ابنة العم، ألف مباركٍ لك، من نجاح لأعلى إن
شاء الله.

توقف قليلاً ثم تابع مازحاً:

—وأنا جاهز لاحتفل معك كل مرة، ولكن بشرط أن يكون
الطعام من إعدادك في المرة القادمة، اتفقنا؟!

نظرت إليه بصمت واكتفت بابتسامة فحسب، شعر حينها بأن العالم
كله يشاركها ابتسامتها الوضاعة، بدءاً من قلبه حتى البحر والسماء
والطيور والغيوم، وانتهاءً بنسمات الهواء الباردة التي تداعب
وجهيهما.

بعد أن سمع منير قصة عليّ، علم بأن هناك سوء فهم كبير، أشفق
على صديقه المقرب مما قد مر به، وعد علي بأنه سيحاول معرفة
حقيقة داليا، وهو واثق بأن هناك خطأ وخداع، ولو تأكد بأنها
بريئة فإنه سيحاول شرح الأمور، عليهما أن يتناقشا ويضعوا النقاط
على الحروف، المشاكل لا تحل بطيها هكذا ونسيانها، عاتب صديقه
على تصديقه لكلام الغرباء دون أن يتحاور مع الفتاة ويفهمها، وشعر
علي بغلطته، كانت سهرة عامرة سكب كل منهما أحاديثه ومشاعره
فيها للآخر، لم ينم ليلتها أي منهما، الأول يعاتب نفسه وينتظر
بالدقيقة نتائج ما سيصل إليه صديقه، والآخر انتظر شروق الشمس

انتظاراً للذهاب لعيادة الطيبة إيناس لعلها توصله إلى داليا ليستفهم منها الأمر.

كانت إيناس قد عادت إلى بيتها أخيراً، نهضت بتكاسل كارهةً مفارقة السرير الدافئ والوسادة المريحة التي هجرتها عدة أيام، مهما شعر بالراحة عند الناس إننا لا ننام بعمق إلا بيوتنا وعلى وسائدنا الخاصة التي نشعر وكأنها صديقة وفية لا تُستبدل بأي حال، كيف لا وهي التي تستمع لدعواتنا، وهمساتنا، ودمعاتنا قبل النوم، كيف لا وهي الشاهدة الوحيدة على الحال الذي لا نود بأن يرانا أحد به إلاها، هي صندوق أسرارنا وأحلامنا وأرقنا وغيره الكثير.

جهزت نفسها واشترت قهوتها وانطلقت للعمل، ما إن وصلت حتى وجدت منير هناك، جالساً في غرفة الانتظار، ما أثار استغرابها أن نسيم لم تكن معه، وكذلك فليس هناك موعدٌ سابق له هنا، أردفت عند دخولها:

— صباح الخير أ.منير.

— صباح النور حضرة الطيبة، لو سمحتِ لدي أمرٌ هامٌ أحدثكِ به.
راحت تتساءل عن هذا الأمر الهام، قالت بعد تردد دام لبرهة من

الزمن:

— تفضل.

— ماذا تعرفين عن داليا خطيبة علي؟

— لا أريد الحديث عنه، يكفي ما سببه للفتاة من ألم قد تخلى عنها
ورحل غير آبهٍ بمشاعرها ولا بدراستها ولا بكلام الناس عنها، ماذا
يريد الآن؟ ماذا لديه بعدُ من أذى؟!

— علي لم يتخلَّ عنها، هي التي فعلت، وشت بمكانه لأولئك الرجال
مقابل المال.

— أوه يا للدراما! كم استغرقت من الوقت أنت وصديقك لتأليف
هذا السيناريو؟ ثم عن أي رجال تتحدث أ. منير؟.

— الرجل قد تم اختطافه وإخباره بأن صديقتك هي من وشت
بمكانه، أظن بأن هناك سوء فهمٍ فظيع علينا النقاش لأجله.
— صدقاً؟

— نعم حضرة الطيبة، ليس لدي مصلحة للكذب على أي حال، ثم
إني قد قمت بتسجيل المكالمات وبإمكانك سماعها لو أردت.
"السلام عليك يا أبتى، سلاماً طيباً مليئاً بالحبّة الدافئة، محملاً بشوقي
إليك.

دعواتي لك لا تتوقف ولا تفتر، وقد تصدقت مؤخراً لأجلك، أنت
حي في فؤادي على الدوام يا أبتى.

أنا بخير والحمد لله، أدمنت عادة الكتابة إليك، أصبحت فقرتي
الحببة، أن اختلي بنفسي، وأحمل قلبي وقلبي لأكتب لك كل
الأشياء التي أود منك معرفتها.

عملي بالتدريس جيد جداً، وهو يتطور يوماً بعد يوم، أخبرتني
الطبيبة بأن الشرطة قد ألقت القبض على الفتاة التي وضعت السم
في العصير، واعترفت بأنني لم أكن المقصودة وحدث ذلك عن
طريق الخطأ، بينما المقصود شاب يدعى علي يتعالج عند الطبيبة،
وقد تسببت في اختطافه أيضاً، اعترفت تلك الفتاة بقائمة طويلة من
الأشياء الغير إنسانية التي قامت بها، الشرطة الآن تبحث عن العصاة
المتورطة معها هذه الفتاة، أدعو الله من كل قلبي أن يتم القبض
عليهم جميعاً.

حالة علاجي أفضل الحمد لله، كنت قبل قليل أقارن بين مقولتين
واحدة عندي، وقد رسلتها مرة للطبيبة، وهذه هي:

(إن الطفل الذي أساء له أبواه لا يتوقف عن حبهما، بل يتوقف
عن حب نفسه).

فرسلت لي الطيبة مقولة أخرى من أحد كتبها وهذه هي:
(ولكن لا يجب أن يكون النقص في التربية عذراً.. لأن نجبن
ونستكين للخوف و للكوارث التي تحيق بنا، فإن لم نكن قد تعلّمنا
الشجاعة وتعودنا عليها خلال مرحلة الطفولة فإنه يجب علينا أن
نتعلمها ونشرع في التعود عليها، وأن نغالب المشاكل والصعوبات
والكوارث وألا نعتزف بالهزيمة أبداً).

وأخبرتني حينها بأن أمي وأبي قد تعرضوا لظروف قاسية بالتأكد،
ربما لم يعرفا كيف يعبران عن حبهما لي، لكنهما بالطبع يحملون
الكثير من الحب لي، وأنهم قد تلقوا تربية سيئة غير متكاملة، وأن
سلسلة التربية تلك قد تكون متوارثة عبر الأجيال، فكل أسرة تربي
أولادها على الطريقة التي تربت هي عليها، وبالتالي فأنا الآن لدي
خياران، إما أن أبقى غاضبة هكذا وساخطة على حياتي، راضية
بدور المظلومة، ضحية التربية السيئة ومستلمة للضعف الذي أنا به،
وإما أن أكون قوية وشجاعة فأرى الصورة كاملة، وأتعاطف معهما
فأعذرهما وأصفح عمّا مضى، ثم أكوّن التغيير الإيجابي وادع سلسلة
التربية المتوارثة عبر الأجيال تتوقف عندي، فأتعافى عنها واتعلم
كيف أربي أطفالي تربية صحية جيدة.

قالت لي حينها:

"أعلم بأن رؤية الصورة الكاملة هذه مزعجة ومؤلمة، لكن يجب علينا ذلك.

شفق أتأتين لنرى الصورة كاملة ونكون آخر جيل يستلم نظام التربية السيء ذاك؟

أتأتين لنتفتح صفحة جديدة، ونعذرهم ونعذر أنفسنا ونكون شجعان؟
أتأتين نتغير ونكون نحن التغيير؟!

تعالى لنُسامح من رحل، ونصدق بأن الحل المريح مع من بقى هو الحب والرحمة، شفق إن الكره سهل، لكن التسامح والحب يحتاج قوة، وبهما تُشفى الجراح داخلنا، بينما الغضب والغل سيأكلك أنت قبل كل شيء.
استعيني بالله وتعالى لنبداً".

أكتب الآن وأنا أشعر بالكثير من التغيرات الإيجابية التي طرأت على شخصيتي، أكتب الآن وأنا ممتنة لهذه الطيبة كثيراً، ولكل من وقف معي، وأحمد الله الذي قوّاني وكان معي في كل لحظاتي الصعبة، وأرجوه بأن لا يترك قلبي ولا يكلني إلى نفسي طرفة عين، ويُنير طريقي بنوره على الدوام.

هذه كل أخباري في هذه الأيام، وأعدك أنني لن أتوقف عن الكتابة
إليك.

رحمك الله برحمته التي وسعت كل شيء يا والدي.
ابنتك التي تحبك."

أما الآن
لو جئت لي بأسف العالم أجمع
لا أريدك.

— هدير مدحت.

كانت الفتيات يتحلقن في دائرة جانب المدفأة، يضعن بعض
الأطعمة والفواكه حولهن، وفي داخل الدائرة توجد علبة المياه،
ليبدأن سهرتهن الجميلة المليئة بالأنس والحب كالعادة.
كانت إيناس ساهمة في أفكارها لا تدري كيف ستفتح الموضوع
مع داليا، خائفة عليها ومن ردة فعلها، أردفت حينئذ:
— أوه، دوري لأسأل داليا.
أمسكت الورقة التي كن قد دونَّ عليها بعض الأسئلة لكي
يستعملونها عندما لا يجدن سؤالاً حاضراً في أذهانهن.
— هل هناك ما تنتظرين حدوثه بفارغ الصبر؟

سألت حنين، فابتسمت داليا برود تتذكر عندما سألتها ذات السؤال حينما كانت تنتظر رسالة علي في أيام الصيف، تناولت هاتفها وأضاءت شاشته موجهةً إياها إلى حنين مردفة:

— أن ينتهي تحميل هذه الرواية بخير وسلامة، منذ الصباح وأنا أحاول تحميلها.

— داليا هناك رسالة من الماسنجر تتوسط شاشة الهاتف، بشأن الرواية اطمئني تبقى القليل فقط ليتم التحميل.

طالعت داليا هاتفها بلا مبالاة، لتجد رسالة من علي، تسارعت دقات قلبها وشحب وجهها مردفة:

— إنه علي!.

هناك صدف عجيبة بكل معنى الكلمة، كيف يُعاد طرح السؤال فتأتي الإجابة ذاتها رغم كل التغيرات؟!

ارتبكت إيناس وضربت خدها مرتين تحاول استجماع طاقتها للحديث، سألت حنين:

— ماذا يريد؟

— يطلب فرصةً للحديث والتفاهم، واعتذر بطريقة أدبية منمقة، عازفاً على أوتار عاطفتي لأسامحه، ولكن ما قيمة الاعتذار؟

كتبت له شيئاً على عجل، ثم رمت الهاتف بعيداً على الأريكة.
صاحت إيناس:

— هناك ما عليك معرفته يا داليا، لا أعرف كيف ابدأ ولكن
اسمعي بقلبك وعقلك.

تناولت حنين قطعة من التفاح نادمة على السؤال الذي طرحته،
نظرت داليا لإيناس المتوترة مردفة بحق:
— ما بك؟ أُنخفين عني شيئاً ما؟.

ضغطت إيناس على المكالمات المسجلة بين منير وعلي، قد
أرسلها لها صباحاً، ثم راحت تقص عليها ما سمعت وعلمت.

على الجانب الآخر كان علي ينتظر ردها بفارغ الصبر، بعد أن
تحدث مع منير وعلم بأنه قد خُذع وأن داليا لا علاقة لها بأي
شيء، كان يظن أن تلك الصديقة التي أخبره منير بأنه حدثها صباح
هذا اليوم، قد أخبرت داليا بكل الأمور، ورسائله الحالية ستجعلها
ترد مباشرة، لم يعد يطيق شوقاً وصبراً لمحدثتها وسماع كلماتها، فوجئ
بردها بعد ربع ساعة بعبارة للكاتبة (ليال شمس) تقول:

(ما عدت أرضى باعتذارك أعترف

جرحي عميق لا يداويه الأسف!).

ثم قامت بحظره.

شعر وكأنه يختنق، لم هناك المزيد من الهواء في الجو، رمى الهاتف فوق السرير بعصبية، ونهض مغادراً المنزل ليتمشى قليلاً، ويفكر بوضوح، لم يعبأ بالمطر الذي ينهمر بغزارة، كان يرجو أن يتل من الداخل أيضاً لتغسل هذه القطرات قلبه وتريحه.

كان الربيع على الأبواب، والبرد قد بدأ ينسحب بتمهل ليحل مكانه الدفء اللطيف، راحت الأشجار تورق من جديد، وازدانت الأرض بشتى ألوان الأزهار، معلنة نهاية الذبول وبداية التألق والجمال، باعثة على النشاط، وكأنها تقول لنا هيا انهضوا وأزهروا فعواصف الحياة لا تدوم مهما طالت ولا بد من ربيع يحيي قلوبكم من جديد.

دلفت إيناس لعيادتها تدندن ببعض الكلمات من قصيدة ما، فاكتمت وجهها احمراراً لرؤية منير جالساً بانتظارها يقرأ أحد الكتب، لم تره منذ عدة أشهر حينما أخبرته أن داليا ترفض الصلح وبأن اعتذار علي أتى متأخراً جداً بغض النظر عن أي ظروف كان يمر بها.

— السلام عليكم، ما بكِ وكأنك رأيت عفريت من الجن؟
ضحكت مرحبة به، تابع:
— أريد مساعدتك في أمر هام.
— أ. منير أنت تغيب وتغيب، ثم تأتي ومعك أخبار فظيعة
كالصواعق.
— عندي الكثير من الأخبار البسيطة لو أردتِ، لكن لكل شخص
خبرٌ على قدر شخصيته.
— تقصد بأنني صاعقة؟
— ليس كذلك، إن كنت لا تريد المساعدة فلا بأس سأصرف.
— حسناً، تفضل.
— علي سيصل عصر هذا اليوم قبيل الغروب تقريباً، وهناك تحدٍ
بيننا.
— وما هذا التحدي؟

— كان حزيناً لأن داليا لا تعرف بجيئه ولن تأتي لاستقباله ولا
يدري كيف سيعود لرؤيتها، فعرضتُ عليه بأن أحاول الحديث
معكِ لنحاول إقناعها بالذهاب إلى المطار في ذلك الوقت، لكنه
رفض وأخبرني بأنه يعرف داليا جيداً، وأنها ذات إصرار عجيب،

فلو كانت لا تريد رؤيته لن تأتي مهما حاولنا، شعرت بأنه يسخر من قدراتنا فتحدىته بأننا سنجعلها تأتي وها قد أتيت لأخبرك واطلب منك المساعدة، فما رأيك؟

— أنما تحديان بعضكما وتقع على رأسي في النهاية، رائع!

ثم سرحت قليلاً، جاء ليتحدث فقاطعته قائلة:

— حسناً، ما المقابل لو جعلتك تفوز بهذا التحدي؟

— أجمل وجبة فلافل من صنع يدي.

— اممم، أعتقد بأن هذا أمر لا يفوت، موافقة إذن.

شكرها منير واستأذن منصرفاً، راحت إيناس تفكر في خطة ما لإقناع داليا بمرافقتها للمطار، بالطبع لن تقتنع لو علمت بمجيئي علي، وستدبر خمسين حجة كي لا تذهب، لا بأس فهي ماهرة بحياكة الحيل، لمعت في رأسها فكرة فابتسمت وسارعت للاتصال بداليا.

" إن الأشياء المُقدرة لك،
حتى وإن سُلبت منك، تعود إليك."

كانت عائلة أبا مازن في رحلة إلى شاطئ البحر، للتمتع بدفء
الشمس وأجواء الربيع، كانت كل من بدور وشفق تجلسان على
رمال الشاطئ وتتأملان مشهد الغروب وهما تتحدثان في شتى
الأمور، أقبل مازن نحوهما قائلاً:

— هل تسمحان لي بمشاركتكما هذه الجلسة الأنيسة.
— طبعاً، تفضل.

أردفت شفق بينما ردت بدور باستهزاء:

— لا إنها أحاديث فتيات، اذهب لتكمل مشيتك على الشاطئ كما
كنت تفعل، أو أذهب لتكتب لفتاة الأحلام كما تفعل عادة.
ضحك مازن وجلس لجوارها هامساً في أذنها: "فتاة شريرة".

اقترحت شفق عليهم أن يلعبوا لعبة الصراحة، فوافقا سريعاً، نهضت سريعاً لتجلب عبوة مياه، جلست قبالتها وأدارتها لتبدأ اللعبة، كان دور بدور لتسأل مازن، نظرت إليه نظرة ذات معنى، كانت مصررة على أن تكشف أمر حبه لشفق الآن، فهي نجولة ولا تفكر سوى بنفسها وبتطويرها وبدراستها، والآخر لا يزال يؤجل خوفاً من ردة فعلها، ويحتج بأنه ينتظر الوقت المناسب.

سألت بدور:

— ما اسم الفتاة التي تحبها يا مازن؟

شعر مازن بأن بدور لا تنوي خيراً، ابتسم مجيئاً سؤالها بسؤال:

— من أخبرك بأنني أحب أصلاً؟

تبادلت نظرة مع شفق وضحكاً معاً، تابعت بدور:

— الأمر واضح جداً، صحيح يا شفق؟

— صحيح، تبقى فقط أن نعرف من سعيدة الحظ تلك، هل نعرفها؟

أجابت شفق فأكلت بدور:

— أين تلاقيتما؟

ضحك مازن قائلاً:

—بسم الله عليكما، شيئاً فشيئاً، سؤالٌ واحدٌ فقط الآن، اسم من أحبها موجودٌ في السماء.

(شمس، قمر، شروق، غروب، غيمة، نجمة، ضحى، ضياء، سحر)
راحتا ترددان معاً اسم كل ما تعرفانه عن السماء، وهو يهز برأسه
نفياً، كانت بدور تتغابي لتقول شفق الاسم، زفرت بدور وتعالى
فضول شفق، فاستدارت لترى السماء مرة أخرى عساها تجد
الاسم، سحرها مشهد الشفق الأحمر وهو يعلو الأفق بتألق فريد
وينسجم مع بقية ألوان السماء بتناسق عجيب، هتفت بهور:
—إذن، شفق!.

ضحك كل من مازن وبدور، بينما صبغت وجنتا شفق بلون أحمر
كذلك المشهد، وابتسمت تخفي وجهها بين كفيها.
صفقت بدور:

—أخيراً، أخيراً، أنا سعيدة جداً سأذهب لأجلب شيئاً نأكله.
مضت بدور، فأردف مازن بخفوت وبنبرة ملؤها الحب:
—أصببتِ يا شفق.

كانت نحلي جداً وغير قادرة على رفع وجهها فمازن قبالتها تماماً،
تمنت أن تبتلعها الأرض فجأة، راحت تتذكر كل المواقف التي

ساندها فيها مازن وكان لجانبها، فهمت الآن سبب غضبه من براء،
وخوفه الكبير عليها، عيناه الدمعتان يوم بكت أمامه، ألواح
الشوكولا والطرف التي يلقيها حينما يلحظ صمتها وحزنها، أيعقل أن
الأمر كان واضحاً لهذه الدرجة وأنها لم تفهم حتى الآن!.

— أتعلمين كم أحبك؟

شعر بأن اللحظة مناسبة للبوح، فأخرج أوراق قلبه ليفتحها أمامها،
نهضت شفق واقفة، اعتقد بأنها غاضبة منه وستهرب، لكنها مضت
بضع خطوات للوراء ثم عادت لمكانها القديم عندما كانت جالسة
مع بدور، أي بجانبه ولكن بينهما مسافة بعيدة قليلاً، كان يُجملها
كونها تجلس قبالة مباشرةً وأيضاً لن تستطيع فهم ما سيقوله عندها
وهو ينظر إليها، قاطعت الصمت الذي خيم على الأجواء بسؤالها
الخافت:

— كم؟

تنفس بعمق، كان يشعر بأن الصمت لن ينتهي، أو بأنها صمتت
لتغير الموضوع، لكنها سألت! هذا يعني قبولها، ابتسم قلبه ووجهه
وعيناه، مردفاً:

— أحبك كحب البحر للسماء، هل تعرفين كيف يحب البحر السماء؟
أت بدور معها قطع من البسكويت المملح، أردفت:
— قلبيكما تثلج الشتاء ذهبت وعدت ولا تزالان على صمتيكما!
لو كنت أنا لما استقر لساني في حلقي لكثرة الكلام.
جلست في المنتصف وتابعت:

— لا، لا نعرف، أخبرنا كيف يحب البحر السماء؟
سيرافقها على طول الأفق، ويعكس صورتها البهية في دواخله،
فتخجل ليظهر الشفق الأحمر اللطيف على محياها.
تهيج أمواجه بجنون حينما يرى دموعها اللؤلؤية تنهمر، ويهدأ حينما
تصفو، فيعمهما هدوء يطمئن النفوس الناظرة إليهما، ييوح لها
بأسرار البشر الغارقة جوفه، وتخبره بأسرار نجماتها المدفونة عمقها،
يتبدل حالهما معاً، حبّ البحر للسماء واسع جداً، يضم العالم أجمعه
ولا ينتهي!.

تململت داليا في وقفها مردفة:

— إيناس منذ ساعة ونحن هنا، أين ابنة خالك للآن؟
— لا أستطيع العودة بدونها يا داليا، اصبري قليلاً، ها قد بدأ ركاب
الطائرة التي هبطت قليل يتوافدون، أمسكي هذه الأزهار عني،
سأذهب لأرى الأمر وأعود.

كانت إيناس تفكر في ردة فعل داليا، لا تعلم بأن الأخرى تشتاق
إليه كثيراً لكنها تخفي ذلك، تشعر بتأنيب الضمير لإخفاء الأمر
عن داليا وتحاول الهرب فراحت تبحث بعينها عن منير، يا ترى أين
هو؟

نظرت داليا إلى الأزهار وقربتها إليها تشتم عبيرها الأخاذ، ثم
أخرجت هاتفها تطالع الساعة فقد بدأت تشعر بالضجر، أعادته
لجيبها، رفعت ناظرها للأمام بحثاً عن إيناس، فالتقت عينها بعيني
علي، خفضت رأسها سريعاً وأغمضت مقلتيها بقوة، أيعقل بأن
الإرهاق جعلها تتخيل وجوده هنا؟!

كان يقترب منها بتؤدة وبخطى متوازنة مبتسماً، يقول في نفسه:
"منير قد فعلها، فاز التحدي!"، اقترب منها ومدّ يده ساحباً باقة

الأزهار

ثم قال مردفاً:

— لا أستطيع التعبير لك عن بهجتي لرؤيتك هنا.

رأت ظله الطويل أمامها، شعرت بألم أيسر صدرها، جف حلقها
لسماع صوته، لم تكن تستوعب ما يحدث، استجمعت أنفاسها رافعة
رأسها إليه.

— هل ساحتني؟

كانت شجاعة ومؤمنة، تعرف بأن عليها أن تجعل قلبها نقياً من الحقد
والغل، فهي قد ساحتته منذ مدة، لكنها لم تستطع إخباره بذلك،
تريد أن ترى مدى تمسكه بها، وتنتظره ليفعل ما يثبت صدق
شعوره، بقيت صامته، فسأل ثانية:

— داليا، صدقيني لم أرحل إلا مجبراً، كانت الظروف أصعب ممَّ
تظني، خسرت هاتفني ورقم هاتفك، رسالتي التي وصلتكَ لستُ من
كتبها، أنتِ أكثر من مجرد طيبة، هل تعلمين بأنك صالحتني مع
الحياة، وبأن نسيانك كان مُحالاً حتى لو ثبت ما كانوا يقولونه عنكِ!
سكت برهة وأكل بنبرة شجية:

— ماذا أفعل لتعود شمسي إلي، وتسمعي دفء كلماتها؟ ماذا أفعل
لتعذرني؟

قالت بصوت متهدج محنية الرأس:

— لا أستطيع ألا أسأحك، أتعلم يا علي؟
بإمكاننا تجاوز الألم والخيبة، بإمكاننا تجاوز الفشل والإخفاق
والمحاولة مجدداً، بإمكاننا تجاوز كل شيء..
خاف من أن تكون قد تجاوزت رحيله ولم تعد تأبه لعودته، تابعت
بعد أن رفعت ناظريها إليه، كانت تشوبهما بعض الدموع:
— بإمكاننا تجاوز كل شيء، إلا مشاعر الحب الصادقة التي منحناها،
ومنحت لنا.

أقبلت والدتي علي نحوهما، واقتربت من داليا، حاضنة إياها بحرارة
مردفة:

— ما أجملك يا بنتي!، علي حدثني عنك طويلاً.
ابتسمت داليا بين دموعها وهي تنظر لعللي الذي يتابعها بعيونه
ويبادلها الابتسامة المتأثرة الدافئة.

صفقت إيناس التي تراقب عن بعد ثم هتفت بمرح:
— مرحى، يبدو بأن القلوب قد تصافت، أريد جائزتي أيها الطباخ
الماهر.

ضحك منير مجيئاً إياها:

—تستحقين أكثر، هيا بنا.

بعد قليل كانت داليا معهما في السيارة، متجهين نحو القرية
وبالذات إلى بيت أم خالد التي تستعد منذ الصباح لاستقبالهم،
شغل علي قصيدة "من اليوم تسامحنا" بصوت عامر عطايا:

من اليوم تسامحنا ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولا بدَّ من العتب فبالحسني
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا
من اليوم تسامحنا ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
كفى ما كان من هجرٍ فقد ذقتم وقد ذقنا
فما أحرى بأن نرقى إلى وصلٍ كما كنا

تمت بعون الله.

19/12/2022

في النهاية أريد أن أوضح بأن ما كتبتة عن الشعور بالاستحقاق وعن المواقف غير المنتهية وسلسلة التربية السيئة عبر الأجيال، مرجعها هو كتاب الخروج عن النص للدكتور محمد طه جزاه الله خيراً.

وآمل بأن تجد بعض الرسائل التي كتبتها عبر هذه الرواية، الطريق إلى قلوبكم مباشرة، إنني أعلم تماماً بأن هذا العمل ليس ممتازاً وكاملاً، بل وربما فيه العديد من الأخطاء والنقص، ولكن يكفي بأنني حاولت، ونفورة جداً بهذه كبدية، أحمد لله الذي أعانني لذلك وأسأله القبول. أريد أن أشكر كل من دعمني بكلمة ثناء وتشجيع وأخبرني بأن لي مستقبل مع القلم.

شكراً لأختي بطله حياتي وروايتي، فقد كانت ورقتي البيضاء الأولى، التي أخبرها بما أريد أن أكتب، فتستمع إلي وتنصحنني وتشاركني رأيها وأفكارها بكل حب. شكراً داليا.

شكراً للفتاة التي خطت لي مكتوباتي من قصص قصيرة، بخطها
المميز على دفتر ما وأهدته لي، تمنحني سعادة كتّابي الأول الذي
أحلم به، محظوظة جداً بكِ.

شكراً إيناس.

وشكراً للنجمة التي أضاءت الكثير من الأماكن المظلمة داخلي،
بكلماتها وحبها ونصحها ودفعها.

شكراً روندك.

شكراً عهد أحمد الفتاة اللطيفة التي عملت على تدقيق هذا العمل.

أحبكن كثيراً

دانية قصاص.

إلى القراء الأعزاء، يسعدني أن استقبل آرائكم الجميلة بكل حب هنا:

الانستغرام:

danial_qasaas@

الفييسبوك:

دانية قصاص

دمتم بخير.

شفق

كانت تقف على حافة الشرفة بجانب أصيصات
الزرع على علو خمس طوابق، فستانها يتمايل
مع نسيمات الهواء، اقترب منها بحذرو هدوء،
ناداها فلم تجبه، كرر النداء فتكررت ردة الفعل
المعدومة، كانت تبدو كأنها ليست في وعيها لا
تسمع ولا تجيب ولا ترى، صرخ بها:
- شفق انزلي أرجوك.

استدارت نحوه ببطء، قطبت حاجبها لرؤيته،
ثم ابتسمت ببرود ولوحت بيدها أي وداعاً،
وأبعدت أول قدم لتخطو للأسفل!